كتاب الشباب

# الهروب من الجَحِيم

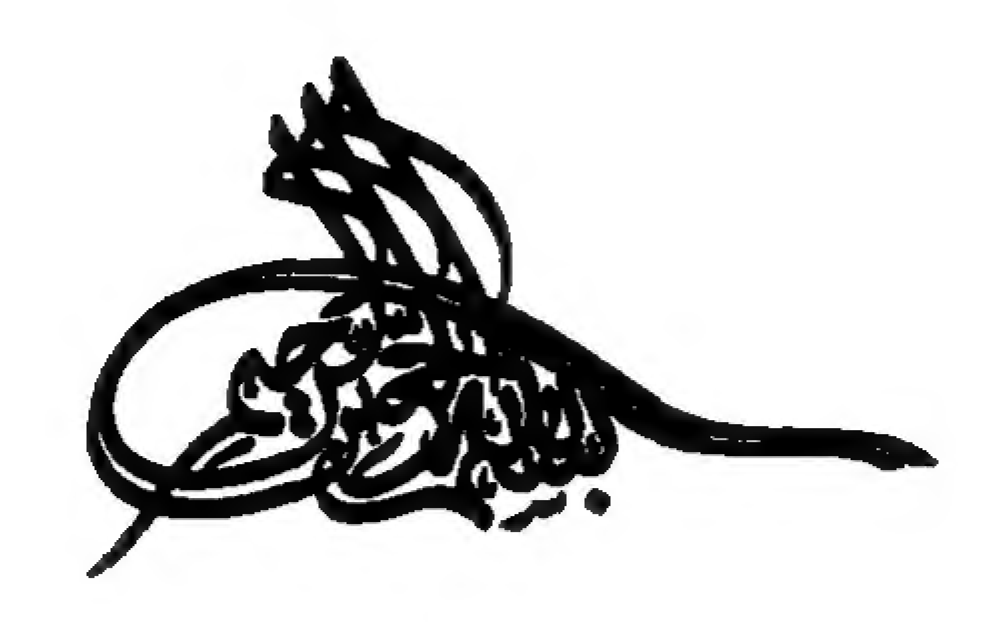


قصص

أحمد عبدالسلام البقالي

مكتبة العبيكان





# الهُـرُوب من الجَحِـيم

بقلـم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة المعارف

ⓒ مكتبة العبيكان ، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبد السلام

الهروب من الجحيم . ـ الرياض .

... ص؛ ... سم . ـ (سلسلة كتاب الشباب)

ردمك ٣ ـ ٢٣١ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ القصص البوليسية العربية أ ـ العنوان ب ـ السلسلة

ديوي ٠٨٧٢، ٨١٣ ١٧/٠١٣٩

ردمك ٣ ـ ٢٣١ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع : ١٧/٠١٣٩

**الطبعة الأولى ١٤١٧هـ**

**الطبعة الثانية – مكررة**

**١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م**



الناشر

**مكتبة العبيكان**

**الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة**

**ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥**

**هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩**

# 1

أَمْسَكَتْ (وَرْدَةُ) بيدِ ابنِهـا الوحيد (إهَابٍ)، ونـزلت معه إلى بَابِ العمارةِ لِتُـرْسِلَهُ إلى المدرسة.

وعَلى بـابِ العمارةِ وقَفَـتْ تُسـوِّي غطـاء رأسِـه الفـرْوِي، ومِعْطَفه الصوفي الثقيل، وتقول له :

- لا تُكلِّم أحدًا في الطـريق. وإذا سألكَ أحدٌ: من أنتَ ؟ فلا تُجِبْ.

وأعادَ هو معها :

- وعُدْ رأسًا إلى الدار بعدَ نهاية المدرسة. ولا تَنْظُرْ إلى أحد !

كان قد حَفِـظَ نصائح أمه عن ظَهْر قلبٍ لكثـرة ما سَمِعَها، وكان يعتقِـدُ أنه ببلوغه سـنَّ العاشرة قد كَبُرَ، ولم يعدْ في حـاجة إلى نصـائح صِبْيـانيـة. فأقفَلت زِرَّ مِعْطفـه الأعلى، وأضـافتْ مؤنبةً له على محاكاته لها :

- ولا تَتَبَجَّحْ بذكائك !

وانْحنَتْ لـه فقبَّل خدَّها وقبَّلـت خدَّه وصرفَتْه ووَقَفَـتْ تنظر إليـه وهـو يَبْتَعـد على رصيف الشـارع العـريض المغطَّى بثلجٍ جديد.

وذهب إهابٌ يَشُقُّ طريقـه وسط الثلجِ الناصع، وعلى ظهره قِمَطْرُ[1] كتبه، وهو يَنْفُثُ البخارَ من فمِه.

ورفَعَ عينيه إلى إحدى العمارات الشاهقة، فرأى وجهَ (الموجِّه الأعظم) يُطِلُّ عليـه من صورة بحَجْم واجهـة العمارة. ونظر إلى الأرض متـذكرًا نصيحـة أمِّـه. ولكنَّـه سُرعانَ مـا أدركَ أنها مجرَّدُ صورةٍ، فلا بأسَ عليه من النظرِ إليها.

وعـادَ ينظـرُ إلى الـوجـه الهائل والـرأس الأصْلَع، والحاجبيْنِ الكَثّيْنِ واللحية العظيمـة المنتشرةِ على صدرِهِ المغطَّى بـالأوسمة والنَّيـاشين بجميع ألـوانِ قـوسِ قُـزَحَ. وقـرأ تحت الصـورةِ: «مَارْليسْتْ: الـمُوجِّه الأعظمُ».

وكـانت صـورة «ماريلسْت»، الحاكم العـامِ لمملكـة الصَّقيع الأكبر، مرسـومةً أو مُعَلَّقـة على كلِّ جـدارٍ، لا تكاد تخلُـو منها

---

(١) القِمَطْرُ: ما تصان فيه الكتب، أي حقيبة الكتب المدرسية.

مؤسَّسـةٌ، أو حديقـةٌ أو مكانٌ يمـرُّ به إنسـانٌ أو لا يمُّر بـه أيُّ إنسان. . .

وفي المدرسة كـانتِ الدروسُ تبـدأ بتحيَّتِه، وتنتهـي بتحيتهِ. وكلُّ إنشاءٍ أو نشيـدٍ أو شعرٍ لا بدَّ أنْ يتنـاولَ جانبًـا من جوانِبِ عبْقريَّةِ «الموجه الأعظم مازْليسْتْ» العظيم.

ولَقِيَ إهابٌ زميلاً لهُ في المدرسةِ فانْضمَّ إليه، وسارَا جنْبًا إلى جنب.

# 2

وفي المساءِ خرجَ إهَابٌ من المدرسةِ عـائدًا إلى منزِله . وما كاد يفترقُ عن زميلِهِ ويتـوجَّهُ نحوَ عمارتِه حتى سَمِعَ حـركةً سريعةً خَلْفه . والتفت فإذا رجلٌ نحيفٌ طويلٌ لا يَلْبَسُ معطفًا ، وبلا غِطَاءِ رأسٍ يَـجْرِي في اتِّـجاهه .

كـان يَبْدو عليـه المرضُ أو الإرهَاقُ الشَّـديـدُ . كانت عينـاهُ غـائرتينِ مُـحاطتينِ بـالسَّوَادِ ، ويشِعُّ منهما الـرُّعْبُ الشديـد ، وكأنَّه رأى شبحًا أو ماردًا من الجِنِّ !

كان يضُمُّ إلى صدرِهِ مجلَّـدًا ضَخْمًا . وحينَ تَسَاوَى مع إهَاب الذي فَسَحَ لـه الطريقَ حتَّى لا يصطدِمَ به وقف الـرجُلُ ، ونظر خلفهُ ، ومدَّ المجلَّد إليه :

- خُـذْ يا ولَـدِي . خُذْهُ لأبيكَ ، وقُلْ لـه أنْ يأخذَه إلى بـلادِ الشَّمس !

ثمَّ انطلقَ يعْـدُو ، وينزلِقُ فـوقَ ثَلْجِ الصَّباحِ الـذي كان قـد تجلَّد . ثمَّ يقـومُ ويعودُ إلى العَـدْوِ بإصْرارٍ كبيرٍ ، حتى اخْتفى في

أحدِ الشوارعِ الجانبية .

وفي اللحظة نفسها سمِعَ زعيقَ [١] سياراتِ الشُّرطةِ ، ووقْعَ حوافر الخَيْلِ وَرَاءَهُ ، فالتَصَقَ بالحائِطِ ، ووقفَ يتفرَّجُ عَلَيْها وهي تمرُّ أمامه مطاردةً الرجُلَ الهَارِبَ .

وتوقف عنده أحدُ فرسانِ الشُّرطةِ ، والشررُ يتطايرُ من عَيْنَيْنِ في زُرقة الجليدِ وبُرودَتِهِ في وجْهِهِ الخشبيِّ المُرَبَّعِ :

- هل رأيتَ رجلاً طويلاً يَجْري؟

وضمَّ إهابٌ المجلَّدَ إلى صَدْرِهِ ، ونظر إلى الفارسِ الهائِلِ المكسُوِّ بالفرْوِ من أعْلاَه إلى أسفله ، وحرَّكَ رأسَهُ بالنفي .

ولَوَى الفارسُ عُنُقَ جوادِهِ ، وتَابَعَ طَرِيقَهُ غير راغبٍ في إضاعةِ وقتِهِ مع هذا الطفل الصغير .

وارتعدت فرائصُ [٢] إهاب طولَ بقيَّةَ الطريق إلى عمارتِهِ رعبًا من مشْهَدِ الرجل الهاربِ والفارس الضخم المُخيف . . .

---

(١) زعيق : أي صوت السيارات المرتفع .
(٢) الفَرَائِصُ : هي لحمةٌ بين الكَتِفِ والصَّدر ترتعد عند الفزع . ولكل إنسان فريصتان .

وفي مَـدْخل العمارةِ نظر حـواليْـهِ. وحينَ لمْ يَـرَ أحدًا، أنـزل القِمَطْرَ من فوقِ ظهرهِ ووضع بداخله المجلَّدَ وأعادهُ إلى ظهره، ثم صَعدَ السَّلالِمَ يلْهَثُ.

## 3

وفَتَحَتْ له بَابَ الشقّة جارةٌ من جيرانهم الثلاثة. فقد كانت كلُّ عائلةٍ تسكُنُ غُرفةً واحدةً في الشُّقة.

ودَخَل إهابٌ إلى غرفةِ أهلِهِ. ولم تكُنْ أمُّهُ ولا أبوهُ قد عادا من عَمَلِهما بعدُ، فوضَعَ قِمَطْرَهُ فوق سريره. ونَزَع قُبَّ [١] رأسِهِ الفَرْوِي، وخرج من مِعْطَفِهِ، ووقف ينظرُ إلى القِمَطْرِ الذي يحتوي سِرَّهُ الرَّهيب...

وبعدَ لحظةِ تَردُّدٍ مدَّ يدًا مُرتعِشةً إلى قُفْلِ القِمَطْرِ فَفَتَحه، وأخْرجَ المجلَّدَ، وقعد على جانب السرير وفتحه فأدهشهُ ما رأى.

كانتْ صفحاتُه تكادُ تَنْطِقُ بجمالِ الرُّسومِ اليدويَّةِ التي رُسِمَتْ عليها لوْحاتٌ مُلَوَّنة بألوان زاهيةٍ تشيعُ منها البهجةُ والحُبُور [٢]...

وأخذ يتصفَّح الكتابَ فإذا هو يحتوي على رُسومٍ لجميعِ

---

(١) قُبَّ رأسِهِ: أي غطاء رأسه، وهو غطاء مستدير مجوف من الفرو يستخدم في الشتاء.

(٢) الحبُور: السرور.

مشـاهِدِ الحيـاةِ من وجُوهٍ وحيـواناتٍ وأشجـارٍ وأزهارٍ وطيـورٍ، كلّهـا بألـوانٍ بديعـةٍ لا تكـادُ توجـدُ في مملكـةِ الصقيعِ الكالِحَةِ الكئيبةِ دائماً.

ورغم أن بـرتـامَجَهُ المفضَّلَ كـان يمـرُّ على التلفـزيـون فإنـه لم يشغلهُ، وفضَّلَ التفرُّجَ على رُسُومِ المجلَّد.

وفتح إهابٌ فمَه وهو ينظرُ بِـافْتِتَانٍ إلى تلك الرُّسوم.. وبهرتْهُ أنـواعُ العصافيرِ والنـوارِسِ والـوزِّ والبطِ واللقالق والخطـاطيفِ والببغاوات الملوَّنة.

وتـوقَّفَ مشْـدُوهًـا عنـد مشهـدِ الكـراكي[1] وهي تَخُوضُ مُسْتنقعًـا آسنًـا بسيقَـانِهَا الطـويلةِ، تلْـوي أعْنـاقَهَـا الأنيقَـةَ، وتتحرَّكُ في مَهَابةٍ بريشِها الأبيضِ وأطْرَافِهَا الوَرْديَّة الفاتحة.

ووقَعَ إهـابٌ في حـبّ المُجلَّـدِ، فلمْ يشْعُـرْ وهــو يتصفَّحُـه صفحةً صفحةً حين طرقَتْ أمُّه البابَ لأولِ مرَّة.

وحينَ تكـرَّر الطـرقُ وارتفع صــوتُـهُ أسْرَعَ إلى قفلِ الكتـابِ وإخفائِهِ تحت سريرِهِ ثمَّ ذهب يفتح البابَ لأمه.

---

(١) الكُرْكـيّ: طائر كبير، أغبر اللون، طـويل العنق والرجلين، أبتر الـذنب، قليل اللحم، يأوي إلى الماء أحيانًا.

ودخلتْ أمه فَحَدَجَتْهُ بنظرةِ شكٍّ، وسألت:

- لماذا لم تفتح من قبل؟ ماذا كنت تَفْعَل؟

ونظر هو إليها بعينيهِ الواسعتينِ، وقال معتذرًا:

- لم أسمعكِ تطْرقين.

وكانتْ أمُّه قد نزَعت مِعْطَفَها الثقيل وقبَّ رأسِهَا وقفَّازَيْ يَدَيْها، ودخلتْ إلى المطبخِ الصغير المُلْحَقِ بالغرفة لتهيئ العَشاء.

وعادَ إهابٌ فأخرج المجلَّدَ العجيبَ من تحتِ سريره، ووضعه فوقَ مكتبهِ الصغير في ركنِ الغرفة، وأشْعلَ مصْباحَه، وجلسَ يتصفّحُه، ويسترِقُ النظرَ إلى أمِّه في المطبخ حتى لا تفاجئه.

وطرقَ أبوه «الدكتور يُوسفُ النطاسي» البابَ، فوضَعَ فوقَ المجلد أحد كُتُبه وذهب يفتح له. ودخل أبوهُ هو الآخر مثقلاً بملابسهِ كَدُبٍّ كبير، وانحنى فقبَّلَ إهابًا، وتعلَّقَ هذا بعنقه وطبع على خدِّه البارِدِ قبلةً حارةً.

وجلس الثلاثةُ يتعشَّون قبالَةَ جهازِ التلفزيون في صمتٍ. كان المذيعُ يقرأ نشرةَ الأخبار. ولمَّا لمْ تكنْ تهمُّ إهابًا كثيرًا فقد كان لا يعيرهَا كبيرَ اهتمام.

إلا أنه هذه المرة لفت نظـره على الشاشةِ المنورةِ وجـهٌ يعرِفه. ليسَ جيدًا، ولكنـه سبق أن رآه. وتوقَّف عـن مَضْغِ لقمتهِ حينَ عـرفَ أنـه هو الـرجلُ الهاربُ نفسُـه الـذي كان يطـارِدُه رجـالُ الأمنِ، والذي أعطـاهُ المجلَّدَ ليُسَلِّمَهُ لأبيه ويقول لـه أن يأخذه إلى بلاد الشمس...

وقال المعلِّقُ:

« ولكنّ المجلـدَ المحرَّم لم يكن في حـوزَتِه، ويقولُ إنـه سقطَ منه أثناء مطارَدَتِه. ولكنَّ المُرَجَّحَ أنـه أعطاهُ لأحدِ أصدقائِهِ من أعداءِ الـدولة. فمن عثر عليـه أو عرفَ عنه شيئًـا فَلْيُبلِّغ رجالَ الأمن في الحال، وإلاَّ...».

وأخذ يعدِّدُ أنواعَ العقوبـاتِ الرهيبة التي سيتعرَّضُ لها الخَونَةُ المتعاونُونَ. فسأل إهابٌ بِبَرَاءَة:

– يا تُرى ما هي الرسـومُ المحرَّمة التي يستحقُّ عليها كلَّ هذه العُقوبات؟

والتفتَ إليه أبواه معًا في اللحظة نفسها.

– اششش!

وأشـارت أمه إلى أذنها ثمَّ إلى البـاب، فأعـادَ إهابُ السـؤالَ هامسًا، فأجابَ أبوه:

- كلُّ رسمٍ لا يتعلق بتمجيد الموجه الأعظم فهو محرَّم.

- حتى ولو كان زهرة أو فراشة أو كركيًّا من كراكي البحيراتِ الوردية؟

وأسْكَتَهُ أبوه، وعادَ إلى الإنْصاتِ للأخبار والأكل.

## 4

وكانَ اليـومُ الموالي يومَ أحـدٍ. وهيّأتْ أمه طعـامًا لتـأخُذَه إلى الملجإ الذي تقيمُ فيه جدَّتَا إهابٍ لأمِّهِ وأبيه ليقضِيَا النهارَ معهمَا هناك.

واعْتَذر إهابٌ عن الذهاب معهمَا بأنَّ عليهِ أن يُرَاجِعَ دروسه لـلامتحـانِ القريب، فلم يُعَـارِضَـا، وتـركتْ له أمُّـه غـذاءه، وأوصَتْهُ باجتناب الشقاوةِ، ثمَّ خرجَا.

وذهبَ إلى صُنْدوقِ لُعَبِـهِ بالمطبخِ، فأخرجَ من قَعْـرِهِ المجلَّد المحـرَّم، وأخذه إلى طـاولتِـهِ، وانكبَّ على ما كـان بقي لـه من رُسوم.

كان يتتبّعُها بكلِّ دقّةٍ على الورقِ الشفَّـافِ، ثم يَبْدأ بتلوِينها ويتركُها إلى غيرها ليعودَ إلى تلوينها فيما بعد.

وفي مُنْتصفِ المُجلد، أحسَّ أنه قـادرٌ على النَّقْلِ بالنظرِ دونَ التتبع على الـورقِ الشفـافِ، فتَضَـاعفتْ سرعـةُ نقلِـهِ وجـودةُ الصُّور.

ولمْ يَحِنْ موعدُ رجوعِ والديه حتى كان قد انتهى من نقل جميع رُسومِ المجلّد المحرّمِ، وأحسَّ بسعادةٍ عظيمةٍ، وكأنَّ كلَّ تلك المناظِرِ الخلاّبةِ والألوان البديعةِ انطبعت في مكانٍ ما بداخله. . .

كان يُحِسُّ بعُمْقٍ أنه اكتشف عَالمًا عجيبا رائعًا يريدُ أن يعيشَ فيه إلى الأبد. . . وأنَّ شيئًا جديدًا وُلِدَ في أعماقه، وتفتَّح كما تتفتحُ الأزهار اليانعة. . .

وشَعَرَ بأنه قادرٌ على إعادةِ رسم جميع رُسومِ المجلد من ذاكرته بجميع تفاصيلها وظلالهَا وألوانِها. . .

وأحسَّ برغبةٍ عارمةٍ في إشراكِ أحدٍ في فَرْحته العظيمة، في الحديثِ إلى فتىً في سِنّه والإعراب له عن مشاعره الجيَّاشَةِ وعرضِ رسُومه عليه والاستمتاع بإعجابه واندِهَاشِهِ أو حتى بغيْرَتِهِ من قُدْرَتِهِ الجديدة الخارقة !

ولكنْ لِسُوءِ حَظِّهِ لم يكنْ له صديقٌ قريب. كل رُفقائِه في المدرسة، ولا يستطيعُ حمْلَ رُسومِهِ المحرَّمَةِ هذه إلى هناك، وأبوَاهُ يُوصِيَانِهِ دائمًا بألاَّ يَثِقَ بأحدٍ، وألا يتكلَّم كثيرا، فالعالمُ كلُّه جواسيسُ وأشْرار !

وأحسَّ بالرغبة في الصُّراخِ بـدون هدفٍ للتَّنفيس عن مشاعر ابتهاجـه المكبُوتـةِ، ولكنه اكْتفى بالصُّعُـودِ فوقَ سريـره والقفزِ عليه بكلِّ قواهُ حتى خَشِيَ أن يشتكِي سكانُ الشُّقةِ السُّفْلى.

ثم ذهبَ إلى النــافـذة فَفَتحهـا على مِصْراعيهــا، ونظـر إلى المدينـة حولَـه وهي غارقـةٌ في الضبـابِ والثلج، وصور الموجِّـهِ الأعظم العِمْلاقـةُ تنظرُ إليه من كلِّ جانبٍ وجـدار من جُدُرَانِ المدينة.

ونظـر إلى أسفل فـرأى حركـة غير عـاديةٍ. كـانت سيـارات الشُّرطة السَّوداء تنتشرُ بين جميع عماراتِ الحي، وعددٌ هائلٌ من رجال الأمن ينتشرون كـالنملِ يطرقونَ الأبواب، ويـدخلونَ دونَ استِئْذان.

وعـــرفَ بـالضبطِ عمّ يَبْحثــون. وأحسَّ بــالخوفِ. ولكنَّ دماغه كان يعملُ بسرعةٍ تجاوزت خوفه.

وخَطَرتْ ببالـه فكرةٌ، فأخذ المُجلَّد ووضعَ الرسـومَ بداخلِهِ، وفتح باب غرفتِهِ وأطلَّ، فرأى أبوابَ غرفِ الشقةِ تُقْفَلُ وتُرتَجُ،

وقدْ سَـرَى رُعْبٌ شديدٌ بين سكانها. ورأته جارةٌ فقالت له:

- ادخُلْ، وأقفِلْ بابَك! إنَّهم قَادِمون!

ودَخَلتْ هي غُـرفَتَها، وأَرْتَجَتِ البـابَ. فتسلَّل هو خـارجًا على بنَانِ قَـدَمَيْهِ. ونظـرَ حَوَالَيْـهِ، وقصَدَ مَدْخَـلَ الشُّقةِ حيثُ توجَـدُ طَاوِلَـةٌ صغيرةٌ وَرَاءَ البابِ عليهـا جهازُ هـاتفٍ فوق دفتر المشتركِينَ، فرفَعَ الجهـازَ، وأخذ الدفترَ، ووضعَ مكانـه المجلَّدَ، وعاد بالدفْتَرِ إلى غرفَتهِ، فوضعَهُ على المائدة.

وتنـاولَ قِمَطْـرَ كُتُبِـه، فأخـرج كلَّ مـا بـداخلـهِ من دفـاتِـرَ وأقلامٍ، ونَشَرهـا فوق المائدةِ وقعد يكتبُ متصنِّعًـا الاستغْرَاقَ في عمله.

وتَرَامى إلى سَمْعِـهِ وقْعُ أقْدامِ أحذيةِ رجـالِ التفْتيشِ الأَشِدَّاءِ بمسَامِيرِهـا الحادَّةِ للوقَـايَةِ من الـزلل على الجليد، ثـمَّ أصواتُهمْ وهُمْ يدفعُونَ بابَ الشقة، ويـدخلونَ، ثمَّ طَرقاتهمْ العنيفةُ على أبوابِ الغُرَفِ وبروزُ رؤوسِ السكان الذيـن كانوا يتحوّلون أثناء حَملاتِ التفتيشِ المتعاقبـةِ إلى فيرانٍ بشريةٍ كبيرةٍ، بدونِ كـرامةٍ ولا شهامةٍ ولا احترامٍ للذَّاتِ! وكلُّ هَمِّهِمْ النجاةُ بِجُلُودِهم ولوْ

على حسابِ جُلُودِ الآخرين . . .

ووقعتْ رَكْلةٌ عنيفـةٌ على باب إهاب فانْفتحَ وحْـدَه. كان قد تَرَكَهُ مفتوحًا عمدًا حتى يُوهِمَ المفتشينَ أنه لا يُخْفِي شيئًا .

ونظرَ إليـه المفتشُ الملْتَحِي الملْفُوفُ في الفِـراءِ والجلْدِ كبرميلٍ حيٍّ، وسأل :

- هَلْ أنت وحْدَك؟

فوقف إهابٌ يَرْتعشُ أمامهُ :

- نعم .

- أين أبوَاكَ؟

- ذهبَا لزيارة جدَّتيَ .

- ولماذا لمْ تذهبْ أنت ؟

- عندي امتحان. وعليَّ أن أُراجِعَ دُرُوسي .

وحرَّكَ المفتش المُكَـوَّرُ رأسه، ودخل ينقبُ بين أثاث الغُـرفةِ ويقلِّبُهـا قطعـةً قطعةً، ويفتحُ كلَّ بـابٍ، وينظُـرُ تحتَ الأسِرَّةِ وخلْفَ الأبوابِ، والنوافذِ بطريقة الكلبِ الباحثِ المدرَّب .

ولما لمْ يعثُرْ على شيء، نَظَرَ إلى إهَاب وقال:

- عُدْ إلى دُرُوسِك.

ورفع قبضتَه في الهواءِ وهتفَ:

- عاشَ الموجِّه الأعظَم..!

فاضْطُرَّ إهاب إلى محاكاتِه.

وجلسَ ينتظِـرُ في جَـزَعٍ حتى خَـرَجَ آخـرُ جُنْـديّ، وأُقْفِلَ البابُ فتنفَّس الصُّعَـدَاءَ، وخرج من غـرفته متسلـلاً إلى مدخَلِ الدَّارِ، فنظر إلى المجلَّدِ، فإذا هو ما يزالُ تحتَ جهازِ الهاتفِ.

واقتربَ من البـابِ، ووضعَ أذنـهُ عليهـا، فتَرَامَى إليـه وقْعُ الأقدامِ الحديديَّة على السَّلاَلِمِ وهي تبْتَعِدُ، فرفَعَ الهاتفَ، وأخذ المجلدَ، وتسلَّلَ راجعًا إلى غُرْفَتِهِ.

## 5

وعاد أبَـوَاهُ متأخريْـنِ ذلك المساءَ، فـوجَداهُ نـائمًا على وجههِ فوقَ دَفتَرِ الرسومِ التي كان يلوِّنها، وصَدرُهُ على السريرِ، ورُكْبَتَاهُ على الأرضِ، وقد انْتَشَـرتْ من حَوْلِـهِ الرُّسـومُ التي انتهى من تلوينها.

وانْحَنَتْ أمه فوْرًا لتجْمَعَ الأوراقَ دون أن تنظرَ إليها لتُخلِيَ له الفراشَ. ولكنَّ أباهُ لاحظَ الرسومَ فأخذها من يد زوجته، وراحَ ينظرُ إليها باندِهَاشٍ كبير. . .

قال لزوجته منبّهًا:

- انظري. . .

فنظـرت إلى الـرسـوم الملـونـة، وفتحتْ فمهـا استغـرابًـا واندهَـاشًا. ولمْ يَلْبَثْ استغـرابُهَا أن تحوَّلَ إلى خوف، فـوضعتْ يدَهَا على صدرِها وشهقتْ قائلة:

- ويْلِي! إنها رسومٌ مُحرَّمة!

- ششش!

ووضع يـدهُ على فمِهَـا، ونظـر إلى البـابِ، وهَمَسَتْ هي في أذنه:

- من أين جاء بهذه الرسوم؟

ونظـر الأب إلى السرير فـرأى المجلـد، وأسرع إلى التقاطِـهِ، ووقف يتصفَّحُه وهي تنظُر معه.

ثم وضَعَـه على مائدة الطعـام وأشعَلَ النـورَ الكبيرَ، وجلس يتصفَّحُ أوراقـه ورقةً ورقـةً بالتـذاذٍ كبير. إنه لم يَسْبِقْ لـه أن رأى مثل هـذه الـرسـومِ الرائعـةِ التي تُـدْخِلُ السرورَ والابتهـاجَ على النفس...

وحين انتهى أقفلَ المجلَّدَ، ونظرَ إلى زوجته وقال هامسًا:

- إنـه بـدون شكٍّ المجلَّـدُ المُحـرَّمُ للـرَّسـامِ المتمـرِّدِ بُـرْهَـانَ بُوريش.

- يا إلهي! ومِنْ أينَ حَصَلَ عليه إهاب؟

- لا بدَّ أنـه لقِيَهُ حينَ سَقَطَ من بُوريش أثناء مُطـاردة رجال الأمنِ له، وجاءَ بِهِ إلى الدار.

ثم تنـاوَلَ الأوراقَ الشفَّـافــة والكـرّاس المُلـوَّنَ، وأنعمَ فيهما النظر، والتفت يتأمَّلُ طِفله النائم على ركْبتيه.

وذهبت وردةُ إليــه، فخلعت حــذاءه، وهمتْ بـرفعــه إلى سريره، فاستيقظ مذْعوراً، ونظر إليها ثم إلى أبيه وراحَ يسأل:

- أين رُسُومي ؟ أين المجلَّد؟

ووضعت أمُّه يدها على فمِهِ:

- ششش! من أين جئت بهذا الكتاب ؟

وانضـمَّ إليهما أبُوه.

ووقف إهابٌ يمسحُ عينيه وينظـر إليهما في صَمْتٍ، فحركته أمُّه من ذِرَاعِهِ في إلحَاحٍ مَكْبُوت:

- من أين جئت بهذا المجلَّد؟ تكلَّم.

وتدخَّل الأب والمجلَّد في يده:

- تكلمْ يا إهابُ. لا تخَفْ.

فنطق إهابٌ بصوتٍ نائمٍ محشرج:

- أعطانِيهِ رجلٌ كان يُطَـارِدُهُ رجالُ الأمن بالخَيْلِ والسياراتِ قَريبًـا من مَدْرستنا، وقـال لي: «خُذْهُ لأبيكَ وقُلْ لـه يأخُذُهُ إلى بِلاَدِ الشمس».

ونظرتْ وردةُ إلى زَوْجِهَا في ارْتِيَابٍ وهمستْ:

- هل تعْرِفُه؟

- أبدًا . . .

- ولماذا أعطَى إهابًا المجلدَ وطلبَ منهُ أنْ يعطيَكَ إيَّاهُ؟

- لا أدْرِي. لعلَّها مغـامَرَةُ رجُلٍ يـائسٍ توسَّم الخيرَ في طفلٍ صغير. .

فتناولتِ المجلَّدَ من يَدهِ وقالتْ في عزم:

- تعالَ الآن نسلِّمْهُ إلى رجال الأمن.

وحينَ سَمِعَ إهـابٌ ذلك طـارَ نَـوْمـه، واتَّسعَتْ عَيْنَـاهُ من الجَزَعِ، وأمسك بالمجلد من يد أمه وقال مستعطفًا:

- لا، يا أمي، لا، أرجوك!

- ششش! سيسمعُكَ الجيرانُ، ويشكوننا لرجالِ التفتيشِ.

فردَّ إهابٌ :

– لقد جاءَ رجالُ التفتيشِ ولمْ يعثُرُوا عليهِ .

فَشَهِقَتْ ورْدةُ :

– ماذا قُلتَ؟

واقتربَ منه أبوه :

– جاءَ رجالُ التفتيشِ؟!

– نعم .

– ودخلوا غرْفَتَنا ؟

– وفتَّشوها تفتيشًا دقيقًا .

– ولم يعثروا على المجلد؟

فحرَّك إهابٌ رأسَه بالنَّفيِ :

– كلا .

– أينَ أخفيتَه ؟

– أخفيتُه .

- أينَ ؟

وكرَّرتْ وردةُ السؤالَ :

- أجبْ أباكَ! أينَ أخفيتَه ؟

- تحتَ الهاتف .

وفتحَت فَمَهَا للمفاجأةِ :

- تحتَ الهاتف؟ ولم يَعْثُروا علَيه ؟

فحرَّك رأسَه نافيًا :

- لم يعثُروا عليهِ .

فصاحتْ بصوتٍ مَكْتومٍ :

- يا لَلْمُغَفَّلِ! كنتَ ستوقعُنَا في مصيبةٍ !

- ولكنَّهم لم يجدُوهُ، وهذا هوَ المهمُّ .

وتدخَّلَ أبوه بهدوءٍ :

- وكيفَ خطرَ لكَ أن تُخبِّئَهُ هناكَ؟

- قرأتُ في كتابٍ أنَّ أحسنَ الأماكنِ لإخفاءِ الأشياءِ هيَ البارزةُ. لا أحدَ يبحثُ فيها .

فحرَّكَ أبُوه رأسَـهُ في شعورٍ مختلِطٍ منَ الحيْرَةِ والإعجابِ، ولم يَزِدْ على أنْ قالَ:

- صدقتَ، ولكنْ. . .

وتدخَّلتْ أمُّه بحدَّةٍ مكتُومَةٍ:

- ولكنَّهم سيعودُون! وسيعُـودُون حتَّى يعثُروا عليه. فـلا بدَّ من تسليمِهِ، أو التخلُّصِ منهُ على الأقل.

ونظـرَ إهـابٌ إلى والـدِهِ متوسِّـلاً، فأمسَكَ هـذا بـالمجلَّـدِ، وانحنَى فطوَّقَ كَتِفَي ابنه بذراعِهِ وقالَ:

- الرجلُ الـذي أعْطاكَ هذا الكتابَ، هل هوَ الـرجلُ نفسُهُ الذي رأيناهُ في التلفزيونِ بالأمسِ؟

وتردَّدَ إهابٌ ونظرَ إلى أمِّه الغاضبةِ الخائفةِ ثُمَّ قالَ:

- نعم.

فقالَ أبوهُ شارحًا:

- إذن، أنتَ تعرفُ أنَّ وجودَهُ خطرٌ كبيرٌ على حياتِنا. وكلَّما تأخرنَا بتسليمِه إلى رجالِ الأمنِ زادَ الخطرُ.

فسألَ إهابٌ ببراءَةٍ :

- ولكنْ لماذا؟ ما الخطرُ من كتابٍ جميلٍ كهذا، كلُّه رسومٌ جميلةٌ لا تؤْذي أحدًا، بلْ هي على العكْسِ، تَسُرُّ الناظرين؟ ثم إنَّ الرجلَ حمَّلكَ أمانتَه إلى بلادِ الشمسِ. فهل ستخونُهُ؟

فتدخلَتْ أمُّهُ :

- ششش! ألمْ أقلْ لكَ مرارًا ألا تسألَ مثلَ هذهِ الأسئلةِ السخيفةِ؟! القانونُ هوَ القانونُ، وعلينَا أن نطبِّقَهُ ونطيعَهُ دونَ أنْ نسألَ. «المُوجِّهُ الأعظمُ» أعرَفُ . . .

وبكَى إهابٌ من القهرِ، وضمَّ المجلدَ إلى صدرِه مرددًا :

- أرجوكُم لا تعطوهُم إيَّاه! إنهم سيحرِقونَهُ . . .

فانحنَى عليهِ أبوه متأثرًا بدموعِهِ، وقالَ :

- اسمعْ، دعنِي أفكرْ هذهِ الليلةَ. لن نُسلِّمَهُمْ المجلَّدَ اليومَ. وغدًا نُنَاقِشُ الموضوعَ، نمِ الآنَ.

فقالَ الطفلُ غيرَ مقتنعٍ :

- هلْ تعدُني ألا تعطيَهُ أحدًا دونَ علمِي ؟

- أعدُكَ .

- احْلِفْ !

وهنا تدخلتْ وردةُ لإيقافِهِ عندَ حدِّهِ :

- اخرسْ يَا وَقِحْ ! ألا تُصَدِّقُ أبَاكَ ؟

ونَزَعَتْ منهُ المجلَّدَ، وقالتْ آمِرَةً :

- قُمْ واغْسِلْ أسنانَكَ، والبَسْ منامتَكَ، وَأْوِ إلى فراشِكَ !

ولم ينمْ يوسفُ النطاسيُّ إلا لحظاتٍ متقطعةً، باتَ يفكرُ في المجلدِ الخطيرِ والرسومِ الرائعةِ المحرمةِ وبُكاءِ ابنه إهابٍ الذي لم يسبِقْ أنْ تعلَّقَ بشيءٍ في حياتِهِ تعلُّقَهُ بهذا الكتاب الحرام . . . ولكنَّ الذي أقضَّ مَضْجَعَهُ أكثرَ كانَ صورةَ الرسَّامِ المتمرِّدِ التي ظهرتْ على شاشَةِ التلفزيون . فرغمَ نحافَتِهِ واغْوِرَارِ عينيهِ والسَّقَمِ البادِي عَلَى وَجْهِهِ كانَ يبتسمُ للكَامِيرا ابتسامةَ تحدٍّ غامِضَةً . ظلَّتْ تلكَ الصورةُ تُطارِدُ خَيَالَهُ وأحلامَهُ المتقطِعَةَ . . .

# 6

وفي الصباحِ خـرجَ الثلاثةُ معًـا. ذهبَ إهابٌ إلى مـدرستِهِ، ووقفَ يوسُفُ ووردةُ ينتظرانِ الحافلةَ على المحطَّةِ.

كانَ البرْدُ قـارسًا، والحافلاتُ تمرُّ مزدحمةً بـالعمَّالِ فلا تقفُ. وفي وسَطِ الشـارعِ العـريضِ كـانتِ السياراتُ الحكـوميـةُ الضخمةُ تسيرُ في طريقِهَا الخاصِّ والمحظـورِ على بقيةِ سياراتِ النقلِ العـامِ، تحملُ ركـابَها المُمتازيـنَ من كِبارِ رجَـالِ المُوَجِّـهِ الأعظمِ وأقاربِـهِ وضباطِ جيشِـهِ وشرطَتِهِ ومفتشيـه والمحسُوبِ عَلَيهم من خدمٍ وحَشَمٍ وحاشيةٍ. . .

وحينَ أوْشكَ الاثْنَانِ على التجمُّدِ لطُـولِ الوُقُـوفِ وقفتْ لهما حَافلةٌ فركبَا واندسَّا في زحامِ الرُّكَّابِ.

وعندَ بابِ المستشفَى المركزِيِّ افْترقَتْ وَرْدَةُ التي كانت تعمَلُ ممرِّضَـةً هناك عن زوجِها الدكتـورِ يُوسفَ النَّطَاسِي الـذي كانَ هوَ الآخرُ يعملُ هناكَ موزِّعًا للأدويةِ.

وفي الطـريقِ الْتقَتْ زميلتَهـا (خِيرَة) الممـرِّضـةَ التي كـانتْ تكْبُرُهَا بـأَزْيَدَ من سنِّها، وكـانتِ امْرأةً طيِّبةً ومجرِّبـةً، وعاشَتْ قبلَ عَهْدِ الموجِّـهِ الأعظمِ في عائلـةٍ عريقةٍ، ورأتْ أيَّـامًا أجْمَلَ، ولكنَّها بـذكائِهـا ومرونـةِ طَبْعِهَا اسْتطـاعتْ أن تُسَـايِرَ العصْرَ، وتتكيَّفَ مع الأوضاعِ الجديدة.

وكانت تُحِبُّ وردةَ، وتَعطِفُ عليهَا، وتتسَتَّرُ على أخطائِهَا.

وكانت وردةُ تُحبُّهـا، وتَسْتمتعُ بحديثِها عنْ ذِكْرَيـاتِهَا في أيَّامِ مَا صَارَ يُدْعَى بعهْدِ الفَوْضَى والفسَادِ.

كـانت (خيرةُ) تُـردِّدُ هـامسةً في أوقـاتِ اختـلائِهما لفنجَـانِ شاي:

- تلكَ كانت الأيـامَ! حقًّا كانت تَسُودُهـا بعضُ الفوضَى، ولكنَّها كـانتْ فَوْضَـى الحُرِّيَّةِ وتعدُّدِ الاختيـارِ في كلِّ شَيْءٍ... وكانَ الفسادُ ولكنَّهُ مُبطَّنٌ بالرحمةِ والتسامحِ...

وتتنهدُ في حسْرَةٍ وتقولُ:

- أمَّا اليومَ فهُم يُريـدُونَنَا آلاتٍ تتحرَّكُ بأزْرَارٍ، وهُمْ يَعِيشُونَ حياةَ عَصْرِ الفَوْضَى والفسَادِ نفسِها وراءَ أسْوارِ القبابِ المزخْرفةِ

والقُصُورِ المتْرَفَةِ الباقيةِ من العصْر البائِد. . .

وعند هـذا تقْلَقُ وَرْدَةُ، وتقومُ من فوقِ كُـرْسِيهَا، وتُطِلُّ من بابِ غُرفةِ الأدويةِ لتتأكَّدَ من أنَّ أحَدًا لا يُنْصِتُ لِمَا تقولُ.

ومـرَّ الدكتـورُ يُوسف النطـاسِي يَحْمِلُ سلَّةً مثْقَلَـةً بالأدوِيـة وغيرِها من حـاجاتِ قسمِ الجراحةِ. وَوَقفتْ لـهُ (خِيرةُ) فحيَّتْه بحرارةٍ وهي تتسلمُ منه الموادَّ، وتوقِّعُ له التوصيلَ.

وهمست في أذنهِ مشيرةً إلى غرفةِ العملياتِ الكبرَى:

- كانَ ينبغِـي أن تكونَ هناكَ بقِنَـاعٍ على وجهِكَ ومِبْضَعٍ في يـدِكَ، وأنتَ تعلِّمهُمْ كيفَ يكـونُ فنُّ الجراحـةِ، لا أن تـوزِّعَ الزجاجَ والقطنَ كأيِّ مُمرِّضٍ مُتقاعِدٍ. . .

فابتسمَ لها، وقال مُمتَنًّا:

- أنتِ سيدةٌ عـزيزةٌ يا مَـامَا «خيرة». . . فـلا تُكرِّرِي ذلكَ حتَّى لا يَسْمَعُوكِ وينقلُونِي إلى قِسْمِ القِمَامةِ!

وحمَلَ سَلَّتَه ورَاحَ. لم تكُـنْ تعرِفُ أنَّـه زَوْجُ ورْدَةَ؛ لأنَّهمَا اتَّفقَا على ألاَّ يُخْبِرَا أحدًا بذلكَ إمعانًا في الحيطةِ والحَذَرِ.

وحينَ انصرفَ التفتتْ إلى وردةَ وأشارتْ إليه وقالتْ :

- خُذِي هذا الشـابَّ مثلاً، إنه الدكتـورُ يوسفُ النطاسِيُّ. أبوهُ وجـدُّه كانـا من ألْـمَعِ أطبّـاءِ عصْرِهِمَا، مهْنَةُ الطِّبِّ تَسْرِي في عُـرُوقِ عائِلَتِـه مُنْـذُ القِـدَم. وقد تخرَّج هـوَ في كلِّيـةِ الطبِّ بعـلاَماتِ الامتيـازِ، وكان أولَ صَفِّـهِ، وتسلَّمَ شهـادتَه من يـدِ وزيرِ التعليمِ نفسه.

وتَنهَّدت في حَسرةٍ:

- وماذَا يفعلُ اليومَ ؟ يوزِّعُ الأدويةَ كممرِّضةٍ فاشِلةٍ عَجُوزٍ.

وسألتْ وردةُ:

- ولكنْ لماذا ؟ أليسَ هذا ضَياعًا وتبذيرًا ؟

- أقولُ لكِ لماذا إذا وَعَدْتِ ألا تُكرِّري ذلك لأحد.

ونهضتْ من كُـرسيهَـا وأطلَّتْ من بـابِ الحُجْـرَةِ، واقْتربَتْ من وَرْدةَ، وأخذتْ توشوشُ في أذنِهَا :

- مديرُ المستشفَى يحْقِد عليهِ.

- لماذَا ؟

- لا لِشيءٍ فعلَـهُ، ولكنْ لمجرَّدِ أنَّـه هو. . . أنـه يحملُ اسمَ النَّطاسي. أفهمتِ الآن ؟

فَحرَّكتْ وردةُ رأسَهَا بِغَباءٍ:

- لا، آسفةٌ لم أفهم.

فسحبتْ (خيرةُ) الكـرسيَّ منْ تحتِها لتقترِبَ منهَـا أكثـرَ، وهمستْ:

- إنهُ يعـرِفُ أصْلَهُ وتفوُّقَهُ الـوِراثيَّ في عُلُومِ الطبِّ، ويخافُ أن يَظْهرَ ويتفوّقَ عليه ويأخذَ منه مَنْصِبَه.

وحرّكتْ وردةُ رأسَها فَاهمةً:

- آهْ! إنَّه الحَسَد!

فأضَافتْ خيرةُ:

- والغيرةُ الموروثَةُ!

- كيفَ؟

- أنتِ لا تعـرفينَ شيئـاً عن كبَـارِ اليـومِ، ولا عن آبـائِهم وأصُولِهِم. أتعرفينَ منْ كانَ أبو مُديرِ هذا المُستشفَى؟

ولم تنتظرِ الجوابَ، وأضافَت:

- كانَ بُستانِيًّـا في حَديقةِ والدِ يُوسفَ النطـاسِيِّ، وهو الذي شَجَّعَ البُسْتَـانيَ على تعليم ابنِـه، وحصَلَ لهُ على مِنْحَـةٍ لِكلِّيـةِ الطبِّ، وأشْرَفَ على تَعْليمِه.

فحرَّكت وردةُ رأسَها مُستغربةً:

- واليومَ يفعلُ بابْنِه هذا!

- وأكْثـرَ... إنه جَمَّدَهُ في عملٍ لا عـلاقـةَ له بِمهنـةِ الطِّبِّ حتى يَنْسَى مَعلُوماتِه، ويُصْبحَ أُمِّيًا في مِهْنَتِه... فَهمتِ الآنَ؟

ولمْ تُجِبْ وردةُ؛ فقـدْ كـانتْ غَـارقـةً في التأمُّل. الآنَ فقطْ فَهِمَتْ سببَ حُزْنِ زوجِهَـا العميقِ وانْطِوائِه وتَشَاؤُمِـه. كانتْ عَرَفَتْه طالبًا عامرًا بالحيويَّةِ والتَّفَاؤُلِ والأمَلِ، ولكنَّه بَعْدَ تخرُّجِه انطفأَ تَدْريجيًّا كَنَارٍ بلاَ وقُود.

وانتظرتْ نِهايةَ النهـارِ بِصبرٍ نافدٍ. وما كـادَتْ تلتقي زوجَها على بـابِ المُستشفَى حتى سَـارعتْ إلى الإِسْرَارِ إليه بما سَمِعَتْـه عن مُديرِ المستشفى من أسْرَارٍ جديدة...

وجـاءَ دورُهُ هو لِيستغـرِقَ في التّـأَمُّلِ طوالَ الطـريقِ المُزدَحمِ البارِدِ.

## 7

وفي يـومِ الأحدِ، جـاءَ لِـزيـارتهم (كامـلُ النَّطاسِيُّ)، أَخُـو يوسفَ، وزوجتُه (سناءُ) وطفلَتُهُمَا الشَّقْرَاءُ الجميلةُ (رَنْدَةُ).

وعلى البابِ قدَّمَتْ رنـدةُ لابْنِ عمِّها إهابٍ هَدِيـةً ملفُوفةً في وَرَقَـةٍ مُلَوَّنَـةٍ، وطلبتْ منـهُ فَتْحَهَـا. وحينَ فتحَهَا، وجـدَ أنها بُرتُقالةٌ كبيرةٌ، فكادَ يطيرُ فرحًا بِها، وشكرَ رندةَ بحرارةٍ.

وسألتْ وَردةُ:

- كيفَ حَصلْتُم على البُرتُقال؟ إنه فاكهةٌ نادِرةٌ في بَلَدِنا.

فقالتْ سَناء:

- قِصَّتُهَا طـويلةٌ. وباخْتِصَارٍ وَصلَتْ منـه كَميَّةٌ محدودةٌ من بلادِ الشمسِ، واكتَرَى كـاملٌ رجُلاً مُتقـاعدًا لِيقِفَ في الصَّفِّ مدَّة ثَماني سَاعاتٍ ليحصُلَ عليها.

- على واحدة ؟

- بالضبط.

فعلَّق كاملٌ:

- مُنذُ قتَلوا الفلاَّحينَ وأعطُوا أرْضَهُمْ لِلْمُوَظَّفِينَ والنَّاسُ يَموتُونَ جُوعًا، والدولةُ تَتسوَّلُ الطعامَ من الذين تَصِفُهُمْ بالرجعيين والأنْذَالِ!

فوضعتْ سناءُ زوجتُه يدَها على فمِهِ:

- اششش! ألا تعرفُ أنَّ للحيطانِ آذانًا!

فَتوجَّهتْ وردةُ لإهابٍ وقالتْ:

- عليكَ أن تقتسِمَ هديتكَ مع الجميعِ. فقدْ كادَتْ تُكَلِّفُ رَجُلاً حياتَه.

واعترافًا بجميلِ رندةَ عليهِ، استأذَنَ إهابٌ والدَه في أن يفرِّجَها على مجلَّدِ صُوَرِه.

وظَهَرَ الفَزَعُ على وجهِ وَرْدَةَ، ولكنَّ يوسُفَ قال لها:

- لا تقلقي! ليس معنا غريبٌ.

وأَذِنَ لإهابٍ في إخراجِ المجلدِ المحرَّمِ، فقفزَ هذا سعيدًا إلى صندوقِ لُعَبِهِ وأخرجهُ من قَعْرِهِ، وقعَدَ إلى جانبِ رنْدة على سرِيرِه، وأخذَ يَتصفَّحُه ويُرِيهَا الصُّوَرَ.

وَدَخَلَتْ سنـاءُ مع وردةَ المَطْبَخ، وجلسَ كـاملٌ مـع أخيـهِ يـوسـفَ يَتَحَـدَّثَـانِ. وحين سألَ كـاملٌ أخَاه عـن وضْعِيَّتِـهِ الإدَاريـةِ، وهل استطَـاعَ حَلَّ مُشكلتِـهِ مع مـديـرِ المستشفى والعَوْدَةَ إلى مُمَـارَسَةِ الجرَاحَـةِ، حَكى له يـوسفُ مـا حَكَتْهُ خيرةُ لزوجتِهِ عن مُديرِ المستشفَى.

فنظَرَ كاملٌ إلى أخيهِ وقالَ:

- إذنْ هذا هو التفسيرُ. ولا شكَّ أنَّ مديرَكَ وراءَ تجميدِي أنا الآخـر رغْمَ أنِّي مُهَنْـدِسٌ. فـالموظَّفُـونَ السَّـامُـونَ يَتَعـارَفُـونَ ويَتبـادلُـونَ المصـالِحَ. أنـا الآخَـرُ دَرَسْتُ هَنْدسـةَ الفَضَـاءِ، ووجدتُ نفسِي في مَنْصِبِ مُفتِّشٍ للطُرقاتِ والمسالِكِ الثَّانويَّة.

وقَاطَعَتْهُما رَنْدَةُ بالمُجلَّد بينَ يَدَيْهَا تَسْأَلُ عَمَّهَا يوسفَ:

- ما هذهِ يا عَمُّو يوسُف؟

وأشارتْ بإصْبعِهَا الصغيرِ إلى صَفْحةٍ بها عـدَّةُ طيورٍ مُلوَّنَةٍ. فحَمَلَهَا يـوسفُ وأجْلَسَهَا على رُكْبَتَيْـهِ، وبَسَطَ المجلَّـدَ، وأخَذَ يشرَحُ لها:

- هذهِ طُيُورٌ.

- وما هيَ؟ وماذا تَفْعَلُ ؟

- هي حيــوانـاتٌ صغيرةٌ ذاتُ ريشٍ وجَنَــاحَيْنِ، تطيرُ بهمَا وتُحَلِّقُ في الفضاء.

- وأينَ تُوجدُ؟

- في بلادِ الشَّمسِ.

- لماذا لا توجدُ عِنْدَنَا ؟

- لأنَّ الموجِّهَ الأعظمَ أمرَ بإبادَتِها.

وَلَمْ تَفْهمْ رندةُ الكَلِمةَ، فشرحَ إهابٌ:

- بِقَتْلِهَا وإفْنائِهَا...

- ولكنْ لماذَا ؟

- قالَ: إنَّهَا تَحْمِلُ الأَوْبِئَةَ.

- الأَوبِئَة ؟

فشرحَ إهابٌ:

- الأمراضَ المُعْديةَ التي تَنتُقِلُ من واحدٍ لآخرَ، وتَقْتُلُ الناسَ .

وتوقَّف، ثمَّ عادَ يُعلِّق :

- ولكنّ الحقيقةَ غيرُ ذلك .

فنظرَ إليه أبُوه مُسْتَغْربًا :

- ماذا تعنِي ؟

- قال لي أحدُ أصْحابِي في المدرسة : إنَّ سَبَبَ إعْدَامِ الطيورِ هو أنَّها تَطيرُ وتُحلِّقُ في الفضاءِ، وتَجْعَلُ الناسَ ينظرُون إليها ويَحْلُمُونَ، ويَتَمَنَّونَ لو كانت لهُمْ هم أيضا أجنِحَةٌ يُحلقونَ بها في الفضاءِ . . . ثم إنها تذكِّرهُم بِقُدْرَةِ الله، والمَسْؤولون لا يؤمنونَ بالله !

وسمِعَتْهُ أُمُّهُ من المَطْبَخ، فخرجتْ مُسْرِعةً والسكِّينُ في يدِها، وصاحتْ فيه بِصَوتٍ مَكْبُوتٍ :

- اخْرَسْ، قُطِعَ لِسَانُك!

ثم فَتحتْ بابَ الغرفةِ وأطلَّتْ منه لِتَرى هل كانَ أحَدٌ من الجيرانِ الفُضوليين يُنصِتُ إلى الحديثِ . وتَوجهَتْ إلى زوجِها :

- اسْمَعْ ! هذا الولدُ سوفَ يَتَسبَبُ لنا في مُصِيبَةٍ !

وَرأَتْ المجلدَ بين يديهِ على رُكْبَتَيِ الطِفْلَةِ، فقالت:

- وهـذا الكتـابُ قُنبلـةٌ زمنيـةٌ سَتَنْفَجـرُ فينـا بينَ سـاعـةٍ وأخرى. . . يكفِي أن يَجيئُوا مرة أخرى للتفتيش ليقَعَ في أيديهم وتكون نهايتُنا.

وانضمتْ إليهم سناءُ، ووقفتْ تُنْصِتُ إلى قصـةِ المجلدِ التي كانتْ وردةُ تحكِيها لِكَامِلٍ. وحينَ انْتهتْ قالتْ وردةُ لِزَوْجِها:

- لا أريـدُ هـذا المجلـدَ في بَيْتِي! إذا لم تَتَخَلَّصْ منـه أنتَ، فسأفعَلُ أنا، ولا يهمُّنِي إذا كان عَبْقَريًّا أو أيَّ شيءٍ آخرَ. . .

والتَفَتَتْ إلى إهابِ الذي كانتْ عَيْناهُ قد بدأتَا تَدْمَعَانِ:

- وأنتَ، سَتَسْكُتُ أو سَأعْرِفُ كَيْفَ أُسْكِتُكَ !

وعـادتْ إلى المطبخِ ساخِطـةً غـاضبـةً، وتَبِعَتْهَا سنـاءُ تُهَوِّنُ عليها.

وبعـدَ الغَدَاءِ جلسَ الـرجُلانِ يَلْعَبـانِ الشطرَنْجَ، وكِـلاهُمَا مُسْتَغْرِقٌ في أفْكارِهِ الخاصَّة.

وجلستِ المَرْأتَـانِ والطِّفْـلان أمَـامَ التلفـزيـون لِلَتّفـرُّج على مَهْـرَجَانٍ ريـاضيٍّ تَتَخَلَّلُهُ مقـاطِعُ منْ خُطَبِ المُوَجِّـهِ الأعْظَمِ، وسُرْعَـانَ مـا فَقَدُوا الاهتمامَ بـه، وانصرفت السيـدتَـانِ إلى نَسْجِ الصوفِ والحديثِ، والطفلانِ إلى مُجَلَّدِ الرسومِ.

وأخرجَ إهـابٌ رسومَـهُ التي نقلهَا عـن المجلدِ، فـرأتْها سناءُ التي كـانتْ مُعلِّمَـةً بإحـدَى المَدَارِسِ، فتعرَّفتْ حـالاً المَوْهِبَـةَ الخامةَ الكامِنَةَ وَراءَهَا. ونَادتْ إهابًا:

- تعالَ يا إهابُ. هل أنتَ الذي رسمْتَ هذه؟

- لاَ، نَقَلْتُها من الكِتابِ.

- كيف نَقَلْتَها؟ بالتَّتَبُّعِ على الورقِ الشَفَّـافِ أم بالنَّظَرِ إليها وَنَسْخِها؟

- بَعْضُهَا بالتتبّع والبعضُ بالنظرِ.

وتأملتِ الـرسومَ المنسـوخَةَ بـالنظرِ وفَحَصَتْهَـا بعينٍ خبيرةٍ، وقالتْ لأُمِّه:

- وردةُ، إنَّ في بيتِكِ موهبةً فنِّيَةً تُوشِكُ على التَّفتُّحِ.

فَغَمَزَتْهَا وَرْدةُ، وصرفَتِ الطِفْلَيْنِ، ثمَّ قالتْ:

- لا تقُولِي ذلك يَـا سَنَاءُ ! ما الفَـائدةُ من هذه المَوَاهِبِ التي لا تَجْلبُ إلاَّ الفَقْـرَ والشقـاءَ !؟ لا أُرِيدُ تَشْجِيعَـهُ على السَّيْرِ في نفسِ طريقِ الرسَّامِ المُتمرِّدِ صاحبِ المُجلدِ المُحرَّمِ، بل أريدُ أن ينتهيَ هذا. أرجوكِ ! فلا قُدرةَ لي على حَمْلِ هَمٍّ جَديدٍ. . .

ونظرَ كاملٌ إلى أخِيهِ يوسفَ وَغَمَزَ بِعينِهِ ووقفَ :

- من مِنكُمْ يريدُ شَايًا ؟ سأُعِدُ إبْرِيقًا عَلَى مِزَاجِي .

وذهبَ إلى المَطبخِ، وتبِعَـهُ يـوسفُ، ووقفَ الاثنـانِ يُعِـدَّانِ أَوَانِي الشَّايِ ويتَحدَّثَانِ بِهَمْسٍ.

قالَ كاملٌ :

- يـوسفُ، اسمَعْ ما سَـأَقُـولُه لـكَ جَيِّدًا. إنَّكَ تملِكُ كِنـزًا نفيسًا دونَ أن تَدْرِي. . .

- ماذَا تَعْنِي ؟

- أَعْني المُجلَـدَ المُحـرَّمَ. لقَــدْ سمِعتُ في إذاعـاتِ بـلادِ الشمسِ عَـددًا كبيرًا من التصْريحاتِ والأخبـارِ المُبَـالَغِ فِيهـا عن قِيمَتِه الفنِّيـةِ، لأغْرَاضٍ سِيـاسيةٍ، طبعًـا. . . ولكنْ مـا يهمنَا نَحْنُ هو ما يُمْكنُ أن نَجْنِيهُ من وَرَائِهِ.

فحرَّكَ يوسفُ رأسَه غيرَ فاهِم :

– لا أدرِي كيفَ يُمْكِنُنَا نحنُ الاستفادةُ من الكتابِ ونحنُ في بلادِ الصَّقيعِ ! وحِيَازَةُ الكتابِ هنَا تُعْتَبَرُ جَرِيمةً عُظْمَى ، وتَآمُرًا على أمْنِ الدَّوْلَةِ .

– خَفِّضْ صوتَكَ! أنا أعْنِي نَقْلَ الكتابِ إلى هُناك ، إلى بلادِ الشَّمسِ . . .

– من سَيَنْقُلُه لكَ إلى هناكَ؟ وهلْ تستطيعُ وضْعَ ثِقَتِك في أحدِ هذه الأيامَ ؟ ولولاَ أنَّكَ أخِي ما كنَّا نتكلَّمُ هكذا مُطْلَقًا .

– لا أعني تسليمَ المجلدِ لأحدٍ . أعنِي أخذهُ إلى بلادِ الشمسِ بأنفُسِنا . . .

– وكيفَ والأسوارُ مَضروبَةٌ علينَا في عُلُوٍّ ناطِحاتِ السَّحَاب؟ وفوقها مِثْلُهَا من الأسْلاَكِ الشائكَةِ المُكَهْربَةِ ، وتَحْتَهَا حُقُولٌ واسعةٌ من الألْغَامِ والمُتفجِّراتِ وآلاتِ التَّجَسُّسِ الإلكْتُرونيَةِ ؟

– لا يُزْعِجْكَ ذلكَ! إذا توافرَتْ الإرَادَةُ وُجِدَتِ الوَسِيلَة .

وتوقَّف قليلاً وسألَ :

- هَل تَنْـوِي البقـاءَ في هـذا البَلَـدِ الـذي سَلَبَكَ كلَّ شيءٍ، وألْقَى بِكَ في دَرْبٍ مَسْـدُود؟ لقَـدْ مـرَّتْ عليْكَ في وظيفتِكَ التـافهةِ سَنتَـان. ومـا هي إلاّ سنتـان أخْرَيَـانِ وتُصْبحُ أُميّـا في ميدانِ الطِّبّ! وعِنْـدئِذٍ يفعلُ بكَ مديـرُ مُسْتشْفَاكَ مـا يشاءُ. فهلْ أنتَ مُسْتَعِدٌّ لذلك اليومِ؟

ووقعَ السـؤالُ على رأسِ يـوسفَ كـالمِطْـرَقَـةِ، وكأنَّما لم يكنْ يتوقعُ ذلكَ المصيرَ، ففتحَ فمَهُ عاجزاً عن الإجابةِ. . .

واستأنفَ كاملٌ:

- أنـا الآخـرُ وصلتُ إلى نهايَةِ الـدَّرْبِ المَسْـدودِ، ولكنني لا أنوي أن أَسْتَسْلِمَ دونَ قِتَال. . . فهلْ تُشَارِكُنِي الرَّأيَ؟

وَلَمْ يُجِبْ يوسفُ، فأعَادَ كاملٌ السُّؤالَ:

- هل تسْمَعُنِي؟

وخرجَ يوسفُ من شُرُودِهِ وقالَ:

- أسمعُكَ، أسمعُكَ. . فقطْ لا أدرِي كيفَ تَنْـوِي الخروجَ إلى. . .

ولم ينطِقْ بالكلمةِ المحرمةِ، بلادِ الشمسِ!

- دع تَـدْبيرَ ذلكَ لي. . . أنَـا مهنـدسٌ وذلكَ عَمَلِي. فإذا اتفقْنَـا فما عليك إلا أن تُقْنِعَ زوجَتَـكَ وتُهيِّئَهَـا للْفِكْـرَةِ، من أجْلكُمَا أنتما أولا. وفوق كلِّ شيء من أجلِ وَلَـدِكُمَا إهابٍ، هذه الموهبـةُ المُتَفَتِّحـةُ التي سَيَقْضِي عليهـا الصقيعُ إذا بقيْتَ هنـا في مَمْلَكَةِ ماريليست!.

وسكتَ لِيَلْتَقِطَ أنفـاسـهُ ويُـراقِبَ رَدَّ فِعْلِ كَـلاَمِـهِ في وجْـهِ أخيهِ. ثمَ قالَ:

- إذا وَافَقْتَ فَفِي الصيفِ القادِمِ نَجْتَازُ الحُدودَ بلا صُعُوبةٍ.

والتفتَ فـرأَى في رُكْنٍ من أركـانِ المطبخِ صُنْدوقًـا بـه بعضُ الأدواتِ الطِّبِّية المُسْتَعْمَلَةِ، فأشارَ إليها وقال:

- انظُرْ إلى أدَوَاتِ عَمَلِكَ وبَحْثِك. هل تعتقد أنَّكَ سَتَصِلُ إلى اكْتِشَافِ مَصْلِ السَّرطَانِ بهذهِ الأدواتِ؟

ثم سألَهُ:

- وبالمُناسبَةِ، أينَ وصلتَ في بحثِكَ؟

- لا يترُكُ ليَ المستشفَـى وقتًـــا للبَحْثِ، وليسَ لي مجالٌ للتَّجْــربـــةِ على المَرْضَى إلاّ ما أَسْرِقُهُ خِلْسَةً أو يَتَفَضَّلُ عليَّ به بعضُ الزملاءِ القُدامَى على مَضَضٍ وخوْفٍ.

- نفسُ ما حَدَثَ لِمَشْرُوعِي لِبِنَاءِ مَحَطَّةٍ فَضَائِيَةٍ من نوعٍ جديدٍ. أُغْلِقَتْ عليَّ جميعُ الأبوابِ هُنَا. وإذا أردْتُ تقديمَ شيءٍ فَعَلَيَّ أن أقدِّمَه عن طريقِ السُّلَّمِ الإداريِّ ! وكَمْ مَشَاريعَ اخْتَطفَهَا الرُّؤَسَاءُ والمُدراءُ من دَرَجَات السَّلاَلمِ الإدَارِيَّةِ، ونَسبُوهَا لأنْفسِهِمْ ! ولا أنوي أن أقدِّمَ فُرصةَ العُمْرِ هدِّيةً لأحدٍ من هؤلاءِ اللصُوصِ والنهَّابينَ. . .

ونظرَ من النافذةِ إلى الخارجِ، وأضافَ :

- تصوَّرْ أن يكونَ لك مُخْتَبَرُكَ ومعكَ عددٌ هائلٌ من المُساعدينَ الشبابِ. . . فريقٌ كاملٌ لبناءِ مشْروعِكَ تحتَ قيادتِكَ في أقْربِ الآجالِ، أو لإتمَامِ بحْثِكَ هذَا الذِي تقومُ بهِ حوْلَ السَّرَطانِ. فكِّرْ يا يُوسفُ. . . ومَوْعِدُنَا الأحدُ القادمُ في بيتي على الغدَاءِ.

والتفتَ إليهِ يوسفُ وسألَ :

- هَلْ تعرفُ سناءُ عنْ أفكارِكَ هذهِ ؟

- أجَلْ. وهيَ مُقْتَنعةٌ تمامًا بضرورةِ الفِرَارِ من هذا المُعْتَقَلِ البَارِدِ المَلْعُونِ. . .

فحرَّكَ يوسفُ رأسَه بحُزنٍ وقالَ :

- ولكنَّها بلادُنا . وهَلْ نَهْرُبُ من بـلاَدِنَا؟ أنا أُحِبُّ بلادِي ، وأريدُ أن أعيشَ فيها أنَا وأولادِي وحَفَدَتِي!

وضربَ كفَّهُ اليُسْرى بقَبْضَتِهِ اليُمْنَى في حَيْرَةٍ وألمٍ وقالَ :

- لوْ كانتْ ظُروفُنا ، فقط ، أحسنَ من هَذِه !

فوضَعَ كامِلٌ يَدَهُ على رُكْبَتِهِ وقال باقْتِنَاعٍ كبيرٍ:

- لنْ تهرُبَ من بلدِكَ . . .

فنظر إليه أخوه باستِغْرابٍ ، فأضاف :

- ستَهْرُبُ فقط من هؤلاءِ المُجْرِمِين الذين جَعلُوا من أرضِ الـوطنِ مُعْتقـلاً كبيرًا لا يُحْتَمَلُ العيشُ فيـه . . . وسَتَعُـودُ إليـه قريبًا حينَ يتحرَّرُ إن شَاءَ اللهُ . . .

فنظرَ إليه أخُوه يوسفُ غيرَ فَاهِم ، وسأَلَ :

- وكيفَ ؟

فأجابَ كامِلٌ :

- ستخـرجُ منـهُ بجَسَـدِكَ فقط ، وستعـودُ إليـه بأفْكَـارِكَ وعِلْمِكَ واكْتِشَافَاتِكَ في حقْلِ عِـلاجِ السرَطَان ، بَعْدَ أنْ نَذْهَبَ

إلى بـلادِ الشمس، وتُتَاحَ لـك فرصَـةُ إجْـراءِ بُحُوثِك في أحَـدِ مُختَبَراتِها المُتَقَـدِّمـةِ؛ فـالعِلْـمُ لا وطنَ لَـه، ولا تَقِفُ في وجْهِـهِ حُـدُودٌ ولا سُدودٌ، وسـوفَ يَسْتَفِيدُ أبنـاءُ وَطَنِنَـا من بحوثِنـا، ويَفتخرونَ بنا.

وانحنى عليه وهمسَ لَهُ:

- وحينَ يكتَشِفُ المسؤُولـونَ هنَا سببَ هُـرُوبِنا، سَيُعَـاقِبُون المسؤُولِين عنـهُ شَرَّ عِقَـابٍ، وربَّمَا نَفَـوْهُم إلى بـلادِ الظـلامِ البَـارِد، ومن يَدرِي؟ لَعَلَّهُمْ يطلبُـونَ منَّـا العَوْدَةَ للتَّـدْرِيسِ في جـامِعَاتِنَـا مُعززِيـنَ مُكرَّمين، بعـد أن يَعْتَرِفَ العالمُ بفضْلِنَـا في مَيْدانَي البحثِ الطِبِّيِّ والفضائيِّ.

وتوقَّفَ لحظةً ثمَّ أضافَ:

- وزيادةً على هذا، في بِـلادِ الشَّمسِ سَيُمكنُنا أن نُصَلِّيَ وأن نعْبُـدَ الله نحنُ وأولادُنَـا عَـلانِيةً في المسـاجِـدِ مع النـاسِ، دونَ خوفٍ من أن يرَانا أحدٌ، أو يُبلغَ عنَّا الشُّرْطَةَ!

فـانشَرَحَ صدرُ يـوسُفَ، وانبسَطَتْ أسَـارِيرُه، وشَـاعَ الأمَلُ المُضِيءُ داخِلَ نَفْسِهِ كَشَرابٍ دافِئٍ لذيذٍ...

ولكنَّه عادَ إلى العُبُوس مرَّةً أخرى، وقال لكاملٍ بتَرَدُّدٍ:

- لا أدري كيفَ أفاتِحُ وردةَ بهذا. ولا أعرِفُ ما سيكُونُ ردُّ فِعْلِهَا. فهي امرأة مُحَافِظَةٌ، ولمْ تَعْرِفْ بلدًا غَيْرَ بِلاَدِ الصَّقِيعِ.

فقاطَعهُ كامِلٌ:

- لا تَقْلَقْ من هذه الناحية. سوفَ أدَعُ (سناءَ) تُفَاتِحُهَا في المَوْضُوعِ بطريقةٍ غيرِ مُباشِرَةٍ، وتُهَيِّئُها لقبولِ الفكرة.

وعادَا بالشايِ إلى المائدةِ.

وحينَ هَمَّ كامِلٌ وأسْرَتُه بالذهابِ انْفَرَد بِهِ يوسفُ، وقالَ له:

- اسْمَعْ، هلْ أستطيعُ أن أطْلُبَ منكَ خِدْمةً؟

- مَتَى كنتَ تسْأَلُ مثلَ هذا السؤالِ؟

- هذه خِدمَةٌ صَعْبَةٌ وخطيرةٌ نوعًا.

- بدونِ مقدماتٍ، ما هيَ؟

- أنْ تأخُذَ مَعَكَ المجلَّدَ إلى دارِكَ، وتُخْفِيَهُ هناك. فرِجَالُ التفتيش لن يبحثُوا عنهُ في منطِقَتِكُم، لأنّه ضاعَ منهمْ في هذه الناحيةِ من المدينةِ. وقد جاؤوا مرةً ولا أستبْعِدُ أنْ يَعُودُوا.

- هَاتِهِ. أينَ هو؟

ونادَى يوسفُ صغيرَهُ إهابًا:

- إهابُ.

- نعمْ، يا أبي.

وهَمسَ له:

- أينَ المجلَّدُ؟

- لماذَا؟

- لا تسْألْ، وهاتِهِ حالاً.

وعَادَ إهابٌ بالمجلَّدِ، ومدَّهُ لأبيهِ فانْحنَى هذا يَشْرَحُ لَه:

- سأُعْطِيـهِ لعَمِّكَ ليُخَبِّئَهُ لنا عنـدهُ حتَّى يهدأَ البحثُ عنهُ.

فهمتَ؟ فهوَ في طَـرفِ المدينةِ الآخـرِ، وعندهُ سيـارةٌ رسميةٌ لا يُفَتِّشُها المُفتِشُونَ.

فوافقَ الطفلُ على مَضَضٍ.

ومدَّ يوسفُ الكتابَ لأخيهِ كاملٍ قائلاً:

- حَماكَ اللهُ!

فأخذَهُ كـاملٌ وأدْخَلهُ في حـزامِهِ خلْفَ ظَهْـرِه، وَلَبِسَ مِعْطَفَه الفَـرْوِيَّ الثقيلَ وتهيَّأ للـذهابِ. ولكنَّـه تـذكَّـر شيئًا فعـادَ يقـولُ ليوسفَ:

- اسْمَعْ، سنحتـاجُ لنَوعٍ مُعيَّن مـن قُماشِ النَّايْلُـونِ المُشَمَّعِ المُقَوَّى.

وأخْرجَ من جيبِهِ قطْعَةً منهُ سلَّمَهَا ليُوسفَ قائلا:

- اشْتَرِ كلَّ ما تستطيعُ الحُصُـولَ عليه من هـذا النوعِ. أنتَ ووردةُ. ولا تُثِيرا اهتِمامَ البَـاعَـةِ بِشِراءِ كمِّيـاتٍ كبيرةٍ في دَفْعَـةٍ واحِدَةٍ.

وفتحَ يوسفُ بابَ الغرفةِ، فـابْتعَدَتْ امْرأةٌ جارةٌ كانتْ تَقِفُ وَراءَهُ دُونَ سَبَبٍ واضِحٍ، وَفزِعَ يـوسفُ لرُؤْيَتِهَـا حتَّى كادَ يُقْفِلُ البابَ ثانيةً. ولكنَّهُ سَيْطَرَ على أعْصابِه، وابتَسَمَ لَهَا قائلاً:

- مساؤُكِ سعيدٌ، سيدتي.

فَرَدَّتِ التحيَّةَ بانحِناءَةٍ من رأسِهَا الأشْعَثِ، ولم تَبْتَسِمْ أو تَتَكَلَّمْ.

وودَّعَ بعضُهم البعضَ على بـابِ الشُّقَّـةِ، ودخَلَ يـوسفُ وأسْرتُه، وأسرعَ إهابٌ إلى نافِذةِ الغُـرفةِ المُطِلَّةِ على الشارعِ ليَرى عمَّهُ وأسْـرتَه يركبُونَ السيارةَ، ويَخْتَفُونَ في عَتمَةِ المَسَاءِ.

# 8

لَمَ يَجِدْ يوسفُ كبيرَ عَنَاءٍ في إقْنَـاعِ زَوْجَتِهِ وردةَ بفكْرَةِ الهُروبِ إلى بَلَدِ الشَّمسِ.

حكَى لها عنْ مشرُوعِــهِ وطـريقتِـهِ الجديــدةِ في البحثِ عن مَصْلٍ لعلاجِ سرطانِ الدمِ، وعن قُرْبِ اكْتِشَافِهِ للمَصْل، وعن الشُّهْرةِ والمَجْـدِ والمالِ الذي يُمْكِنُـهُ الحصولُ عليـهِ إذا هو أَعْلَنَ اكْتِشَافَهُ في بلدِ الشمسِ . . .

وتَخيَّلتْ وردةُ كلَّ مــا يُمكِـنُ أن تحصُلَ عليــه وراءَ نجــاحِ زوجِها في بلـدِ الشمسِ من مُتَعِ الحياةِ التي حُرِمَتْ منهـا في بَلَدِ الصقيعِ.

تخيَّلتْ نفسَهـا تَلْبَسُ الفسَـاتِينَ الأنِيقَـةَ والأحذيـةَ الـرفيعـةَ والجَوَاهِرَ النفيسَةَ، وتركَبُ سيـارةً فخمةً خاصَّةً بها وفي مِلْكِهَا، وربَّما يَسُـوقُها سـائقٌ خاصٌّ، وتخيَّلت نَفْسَهـا جالِسـةً في قصرٍ فخْـــمٍ، وَرَأتْ نفسها تَنْتَقِلُ من طائرةٍ إلى أخرَى، ومن مدينةٍ

عظيمةٍ إلى عاصمةٍ أعْظَمَ . . .

ولكنَّ الذي أدْفأَ نفسَها من هذه الأحـلامِ النهاريةِ أكثَرَ، هو تخيُّلُهَـا بعيدةً عن هـذهِ الغرفـةِ الحقيرةِ، وهذهِ الحيـاةِ البائسـةِ الخائفـةِ، وعن وجْـهِ المُوَجِّهِ الأعظمِ الـذي يُطِلُّ عليهَـا من كلِّ مكـانٍ من داخلِ غُرفَتِهـا الضيِّقَـةِ، في الحافلةِ، وعلى جُـدْرَانِ المدينةِ، ومن شـاشةِ التلفزيونِ، ومن كلِّ جـريدةٍ ومجلَّةٍ، وعلى كلِّ حائطٍ بالمستشفَى . . .

وجاءَ يومُ الأحدِ الموعودُ، وجـاءَ كاملٌ ليأخذَهُم بالسيارةِ إلى دارهِ، كما وعَـدَ بـذلك إهـابًـا الــذي لمْ يكنْ ركِبَ قطُّ سيـارةً فردِيةً .

وحملُوا معهُمْ كلَّ ما اشتروهُ من قُماشٍ .

وفي الدارِ جلسَ الجميعُ يَشْتغِلون بَعْـدَ الغدَاءِ، كان كـاملٌ قـدْ أعـدَّ كلَّ شيءٍ في اليـوم السـابقِ . فَفَصَّلَ قِطَعَ القُمَاشِ التي كـان اشْتَرَاهَا هـو وزوجتُـه، ورسمَ حُـدودَ الخياطـةِ، فجلستْ الزوجتَانِ تَخيطانِ القُماشَ دونَ أن تعْرِفَـا ما تَفْعلانِ . وكلَّما سألَتَا أجابَ كاملٌ :

- سَتَرَيَان . . .

وانغمسَ هـو وأخُـوه يوسـفُ في نَسْجِ شَبَكَةٍ مُستـديـرة على شكلِ بيتِ العنكبوتِ من حبالِ نايلون قويةٍ .

وحين انتهت الزوجتانِ من خياطةِ القطعةِ الأولَى من القُماشِ أمسكَ بها الجميعُ من أطـرافِهَا ونَشَرُوهـا وسَطَ الغرفـةِ فإذا هي في شكلِ شَطْرٍ من أشطارِ بَطّيخة مُسْتطيلةٍ .

وعلَّقها كاملُ على الحائِطِ ، ونَادَى إهابًا :

- تعالَ ، يا إهابُ . عندي لَكَ شغلٌ .

ووقفَ إهـاب أمامَ عَمِّـهِ ينتظِرُ أوامِـرَهُ بجدٍّ واهتمام ، فقـال كامل :

- هل تستطيعُ رسمَ وجهِ (المُوَجِّهِ الأعظمِ) على هذه الخِرْقَةِ؟

وفـوجئَ الصغيرُ بـالسؤالِ ، ونظـرَ إلى عمِّـهِ وإلى القُماشِ وقال :

- ولكنني لا أستطيعُ الوصولَ إليها ، فهيَ عَالية .

- لا تَشْغَلْ بالكَ بذلك . هل تستطيعُ رَسْمَ الوَجْه ؟

- بكلِّ تأكيد. فقد رسمْتُهُ مرارًا في المدرسة، ولكن ليسَ بهذا الحجمِ الكبير.

- إذن ما عليك إلاَّ أن تُفكِّرَ كثيرا. .

وطلَب من أخيه يوسفَ أن يَحْمِلَ معهُ طاولَةَ الطعامِ من وسطِ الغُرفة إلى جَنْبِ الحائِطِ، ورفعَ إهابًا إليها ونَاوَلهُ قطعةَ طباشير وقال:

- ابدأ بهذهِ. وبعدَ إتْمَامِهَا نتْبَعُهَا نحنُ بالطلاءِ الأسْوَدِ.

وتناول إهابٌ قطعةَ الطباشيرِ وأخذَ يرسُمُ بِسُرعةٍ ومهارةٍ، ورندة ابنةُ عمِّه الصغيرةُ تنظرُ إليه بإعجابٍ وافْتِتَان.

ولمْ تَمْضِ بِضْعُ دَقَائِقَ حتى بدأتْ تَبْرُزُ من تَحْتِ أنَامِلِهِ الصغيرةِ النَّحيلَةِ مَلامِحُ الوجْهِ الشهيرِ بِصَلْعَتِهِ اللاَّمِعَةِ وحاجِبَيْهِ الكَثَّيْنِ ولِحْيَتِهِ المُنتشرةِ على صَدْرِهِ المُغَطَّى بالنياشِينِ والأوْسِمَةِ.

وحينَ انتهَى مِنْهَا صَفَّقَ لهُ الجميعُ بإعجابٍ إلا أمَّه التي خَافَتْ أنْ يَلْفِتَ ذَلِكَ نَظَرَ الجيرانِ، ولكنَّ كاملاً أذَابَ خوْفَها بِقَوْلِه:

- إنَّنَا نَسْتعـدُّ لـلاحتفـالِ بعيـدِ ميـلادِ (المُوجِّـهِ الأعظمِ).
وينبغي أن يعرفَ الجميعُ ذلكَ.

وَغَمَـزَ بِعينِـه وابتَسَمَ. ولم يكُنْ قـد بَقِي على عيـدِ الميـلادِ الوطنيِّ الكبيرِ إلاَّ أسْبُوعَـانِ، فانْكَبَّ الجميعُ على العَمَلِ لإتْمَامِ المشْرُوعِ الغامِضِ المُعَقَّدِ.

## 9

وفي غـرفـةٍ عَـاريـةٍ بـأحَـدِ مُستشفَيَـاتِ الأمـراضِ العقليـةِ والعصبيَّةِ جَلَسَ بُـرْهَانُ بُورِيش، الرسَّـامُ المُتمرِّدُ، على الأرضِ البَـاردَةِ بمـلابِسَ مُبْتَلَّـةٍ وهو يَـرْتَعِـدُ من شـدَّةِ البَرْدِ، وقـد زَادَ نَحَافَةً وضُمُوراً.

وعلى رأسِهِ كـان يقفُ ضابِـطُ تحقيقٍ وفي يدهِ عصًـا يَنْكُثُه بها ويسْألهُ بصبْرٍ نافد:

- لآخرِ مرَّةٍ أسْألُكَ. أينَ خَبَّأْتَ المجلَّد؟ لِمَنْ أعْطَيْتَهُ؟

وأغمضَ بُـرهَانُ الفنَّـانُ عينيهِ في إرهاقٍ ونُعـاسٍ شديـديْنِ، وزمَّ شفتيهِ حتَّى لا ينْطِقَ.

وتدخَّلَ رجُلٌ في ملابسِ المستشفَى وعلى عينيهِ نظَّارةٌ ذهبيَّةٌ:

- أجبْ يـا بُرهَـانُ! إنَّ حالتَكَ الصحيَّـة سيِّئةٌ للغـايةِ. ومـا عليكَ إلاَّ أن تقـولَ لِمَنْ أعطيتَ الأمـانـةَ لتدخـلَ غُرفـةً دافئـةً، وتُغيِّرَ ملابسَكَ، وتَشْرَبَ حِسَاءً ساخِنا، وتنـامَ نومًا عميقًا حتى تَستيقِظَ وحْدَكَ...

ولمَّا لمْ يُجِبْ أشارَ الضابطُ إلى جنديَّيْنِ :

- أخرجُوهُ إلى السَّاحةِ .

وأخرجَهُ الجُنديان يحمِلاَنِهِ من تحتِ إبطَيْهِ ، وَرِجْلاَه تَنْسَحِبَانِ على الأرضِ ، وألقيَا بـه خارجَ الغرفةِ في سـاحةٍ عاريـةٍ ، أرضُهَا مُغطَّاةٌ بثلجٍ صلْبٍ وَسِخٍ وبعضِ أكوامِ القمَامَةِ .

وفي الحالِ تجمَّـدتْ مـلابسُـه المُبْتَلَّـةُ حتى صـارَتْ كألـواحِ القصْـدِيرِ. وأحَـسَّ بِألَمٍ حادٍّ في رِئتَيْـهِ ، وأخـذَ يَهْذِي مِنَ الحُمَّى والصُّدَاعِ وأوْجَاعِ الأسْنَانِ وتجمُّدِ الأطرافِ .

وخـرجَ الضــابطُ ، وَأَقْعَى إلى جــانبِ رأسِـهِ ، وأخــذَ يُصِيخُ السَّمْعَ .

كانَ بُرهانُ يُرَدِّدُ بكلماتٍ مُتَقَطِّعَة :

- خُذْهُ يـا ولدِي . . . خُذْهُ إلى أبيك ، وقُلْ لَهُ يـذهبُ بِهِ إلى بلادِ الشمسِ .

ووقفَ الضابطُ يفكِّرُ قليلاً ، ثم التفتَ إلى الطبيبِ ، وقالَ :

- أسمِعْتَ ما قالَ ؟

- هلْ فهِمْتَ منهُ شيئًا ؟

- إنَّه أعطَى المجلَّدَ لطفلٍ، وقالَ لـه يأخذُه إلى أبيهِ ليُهَرِّبَهُ إلى بـلادِ الشمسِ. هـذه إشـارةٌ. ورغـمَ غُمُـوضِهَـا فهي تَسْتَحِقُّ الاهتمام.

ودَخَلَ فتناولَ سماعةَ الهاتِف، وأدارَ رقمَ القيادةِ:

- السيدُ الرئيسُ.

وبادَرَهُ الرئيسُ سائلاً:

- هل اعْتَرَفَ المُعْتَقَلُ؟

- ليسَ بطريقةٍ مُباشرَة؛ فهوَ عَنِيـدٌ كالبَغْلِ، ولكنَّه أعْطَانَا في هَذَيـانِه إشارةً إلى أنـهُ سَلَّمَ المجلدَ لطفلٍ، وطلبَ منـهُ أخذَه إلى أبِيه، لِيَأخذَه لبلادِ الشمس.

- منْ الطفلُ؟

- لم يَقُلْ. ولكننَـا نستطيعُ التحقيقَ مع جميعِ أطفالِ المِنطقـةِ حتى نَعْثُرَ على الذي نريدُه.

- ووضعَ الـرئيسُ السمَّاعـةَ، وأعْطَى الأمـرَ لجميع وَحَـدَاتِ تلك المِنطقـــةِ بتفتيشِ منـــازلِ السكـــانِ ذوي الأطفـــالِ، واسْتِنْطَاقِهِم.

## 10

ولم تَمْضِ لحْظَـةٌ على صدورِ الأمـرِ حتَّى كـان أحدُ الضبـاطِ الذين كانوا يطارِدُون برهانَ بوريش يطرُق بابَ يوسفَ. كانَ قدْ تذكَّرَ أنّهُ رأَى الطِفلَ في الطريقِ الذي مَرَّ منه الرَّسامُ المتمرِّدُ.

وحينَ لم يَجِدْهُ طرَقَ جميعَ غُرَفِ الشقةِ وأخرجَ الجيرانَ، وأخذَ يُلْقِي عليهِم الأسئلةَ والتَّهْدِيداتِ.

وتقـدمتِ الجارةُ وهي تـرتَعِـدُ من الخَوْفِ، ورفعتْ يَـدَهَـا طالبةً الكلامَ والأمانَ، وحينَ أذِنَ لها الضابِطُ قالتْ:

- كانـتْ تدورُ في هـذه الغرفةِ بعـضُ الأشياءِ المُرِيبَـةِ. وقد حـاوَلْتُ الاستِماعَ، ولكنِّي لمْ أسمَعْ شيئـا ذا أهمِّيـةٍ، ولكنَّ لهذا الساكِنِ أخًا، اسمُهُ كامِلٌ، لم يَكُنْ يَزورُه كثيرًا، إلاَّ أنه أكْثَرَ من زيـارتِـهِ في الأيامِ الأخيرةِ، كما أنَّ يـوسفَ بـدأَ يتغيَّبُ كلَّ يـومِ أحدٍ حينَ لا يزورُهُ أخُوه.

فسألَ الضابطُ:

- ألمْ تَسْمعِيهِمْ يتحـدثُونَ عـن كتابٍ أو مجلـدٍ، أو شيْءٍ من هذا القبيلِ؟

فحرّكتْ رأسَها غيرَ متأكِّدةٍ، ثم لمعتْ عيناها، وقالتْ:

- الآنَ أتذكَّرُ شيئًا لم أكنْ أعيرُهُ اهتمامًا في حينِهِ.

واقتربَ الضابطُ منها وَكُلُّه أملٌ:

- ما هو، أيتُها السيدةُ؟

- أذكُرُ في آخِرِ مرَّةٍ جاءَ فيها رجالُ التفتيشِ، أنَّ إهابَ بن يُوسفَ النطاسِيّ، وهوَ طفلٌ في العاشرةِ، خرجَ قُبَيْلَ وُصُولِ رِجَالِ التفتيشِ بِلَحْظَةٍ، وتحتَ إبطِهِ مُجَلدٌ وضعَه تحتَ جهازِ الهاتفِ، وعادَ إلى غُرفتِهِ. وظَنَنْتُ حينئذٍ أنه أعادَ دَليلَ الهاتفِ إلى مكانِه، ولم أُلْقِ بالاً إلى أنه كانَ يحمِلُ تحتَ إبطِهِ مُجلدًا آخرَ هو دليلُ الهاتفِ الحقيقيُّ. وبعدَ نهايةِ حَمْلةِ التفتيشِ كانَ الطفلُ إهابُ النطاسي أوّلَ من فتَحَ غُرفتَه وخرجَ إلى وسطِ الشُّقَّةِ، والتفتَ حواليْهِ، كأنما سَيفْعَلُ أمْرًا مُريبًا، وأعادَ دليلَ الهاتفِ إلى مكانِه، وعادَ بمجلّدٍ آخَرَ تحتَ إبْطِهِ.

وابتسمتْ سعيدةً بتقريرِهَا المفصَّلِ، فسألَهَا الضابطُ المُكْتَنِزُ:

- ولكنْ كيفَ رأيتِهِ من داخِلِ غُرفتِكِ؟

فقهقهتِ الجارةُ اللئيمَةُ وقالتْ :

- من ثُقْبِ المفتاحِ ، يا سيدِي الضابطُ . لقد عَلَّمَنَا المُوَجِّهُ الأعظمُ أن نكونَ حَذِرِينَ . . .

وخرجَ الضابطُ بِسُرعَةٍ دونَ أن يُكلِّفَ نفسَه عناءَ شُكْرِ المَرْأة أو رَفْعِ تحيَّةِ مُجامَلَةٍ لَهَا . . .

وبعدَ دقائقَ من تلكِ الزيارة ، كان ضابطٌ آخرُ يطرُقُ بابَ المُهَنْدِسِ كاملِ النطاسيِّ .

وحينَ لم يَفْتَحْ أحَدٌ دَفَعَ البابَ بِحِذَائِهِ العسكري الخَشِنِ فانْفَتَحَ ، ودخَلَ أعوانُه يبحثُون ، فلمْ يَعْثُروا على شيءٍ .

وبنظرةٍ واحدةٍ إلى الغرفةِ عرفَ الضابطُ أن أهلَهَا غَادَرُوها إلى غيرِ رجْعَةٍ ، فنزلَ مُسْرِعًا إلى سيارتِه ، ورفَعَ سمَّاعةَ اللاَّسِلْكِيِّ ، وأخْبَرَ المركزَ العامَّ الذي أذاعَ رقمَ السيارةِ وأرقامَ هُوِيَّاتِ الراكبينَ بِهَا وأسْمَاءَهُم وأوْصَافَهم واتِّجاهَهُم المحْتَمَلَ .

وبدأتْ حواجزُ الطريقِ تُوضَعُ ، وارتفعَ مَعَهَا عددُ السياراتِ المَوْقُوفةِ ، وطالتْ صُفُوفُها ، خُصوصًا أن اليومَ كان يومَ عيدٍ .

# 11

وفي قــريــةِ (إشراقٍ) ببـلادِ الشمسِ، على حــدودِ بــلادِ الصقيعِ، جلس الفَتَى (صُبْحِي) إلى جهـازِهِ اللاسلْكي ليَتَسلَّى بالاسْتِمَاعِ إلى ما يَرُوجُ داخلَ بِلادِ الصقيعِ.

كانَ اللاسلكِيّ هِوايَتَهُ المفضَّلَـةَ، وكانَ يجلسُ إليه الساعاتِ الطوالَ ليستمعَ إلى محادثاتِ النـاسِ من جميعِ أطرافِ الأرضِ، ويتعـرَّفَ زملاءَهُ الهُواةَ بـالدخـولِ معَهُم في الحديثِ، ومعرفـةِ بلادِهِم.

وبينَما هوَ يستمعُ ذلكَ المسـاءَ ويديـرُ زِرَّ الموجاتِ إذ وقعَ في المَوْجَةِ التي تُـذيعُ عليها شرطةُ بـلادِ الصقيعِ أوامرَ القبضِ على عائِلَتَيْ كامِلٍ ويوسُفَ النطاسيّ؛ لأنهما يهرِّبانِ المجلدَ المحرَّمَ في اتجاهِ بلادِ الشمسِ.

وسجَّلَ صبحِي رسـالـةَ الشرطـةِ الصقِيعِيَّـةِ على كـاسيت، ونَزَل يَجْرِي إلى أبيهِ وأمسَكَ بِيَدِهِ:

- تعالَ يا أبي، تعالَ معِي . . .

ووضعَ الأبُ جَرِيدتَه، وصعدَ مع ابنِهِ إلى غرفتـه بالسطحِ، وكـانَ الـلاسلكِي ما يـزالُ يـذيعُ الـرسالـةَ، ويُعْطِي أوْصـافَ العـائلتينِ ورقمَ السيـارَةِ ونـوعَها ويُبْرِزُ خُطـورةَ المجلـدِ الـذي يحمِلُ رُسومًا ممنوعةً للفنانِ المتمرِّدِ برهان بوريش.

واستَمَع الأبُ بإمْعَـانٍ، ثمَّ أخـذَ التسجيلَ، وخـرجَ قـائلاً لصبحِي:

- ابقَ أنتَ هنَـا، وتَتَبَّعْ آخرَ تطورَاتِ الأحـداثِ. وسأذهبُ أنا إلى رئيسِ مجلسِ القريةِ لأُخْبِرَه.

ولمْ تمْضِ سـاعـةٌ على إخبَـارِ المجلِسِ حتَّى وصلَ الخبرُ إلى جميعِ سكَّانِ القـرية، فنظَّمُـوا فِرَقَ الإنقـاذِ، وتفَرَّقـوا على طُولِ الحدودِ القـريبةِ مع بـلادِ الصقيعِ لعلَّهُم يَسْتَطِيعـونَ مساعـدةَ العـائلتينِ الهارِبَتَيْنِ؛ فقـد كـانَ أهلُ بـلادِ الشمسِ يَشعُـرُونَ بِعطْفٍ كبيرٍ على سكَّـانِ بلادِ الصقيعِ المسْحُـوقِينَ المحرومينَ، ويتحمَّسُونَ لمساعدةِ جميعِ مَنْ يحاولُ الفرارَ مِنْهُمْ.

واجتمعَ شيوخُ القـرية في قاعـةِ البلديةِ ينتظـرونَ، ويطلبونَ من رئيسِ المجلسِ تعيينَ مَهَـامّ لهم ليُسَـاعِـدُوا هُمْ، كـذلك، فقالَ لهم ليتخلَّصَ منهم:

- اذهبُـوا وَصَلُّـوا وادْعُـوا الله أن يُنْقِذَ النطـاسيينَ ويسـاعـدَ برهانَ الفنانَ في مِحْنَتِه. . .

وخـرجَ الشيـوخُ والعجَائِزُ وهـم يُهَلِّلُون ويكبِّرُون ويـرفَعُـونَ أصواتَهم بالدُّعاءِ لِلّهِ أنْ يُنقِذَ الهاربين.

ولمْ يكتَفِ صبحي بـالإنصَـاتِ؛ فقـد كـان يَخْشَى أن تَقْبِضَ شُرْطَـةُ الصقيعِ على العـائِلَتَيْن، كما تَفْعَلُ دائماً، فلمْ يَسْبِقْ لأحـدٍ أن استطاعَ اجتيـازَ الحُدودِ الجَهَنَّمِيَّةِ المُحصَّنَـةِ بـالأسْـوارِ والمتـاريسِ[1] والأسْـلاكِ الشـائِكَـةِ والألْغَـامِ. فأمْسَكَ بميكرفـون جهازِهِ واختارَ موجَةً واسعـةً تُسْمَعُ بِقُوةٍ داخلَ بلادِ الصقيعِ وأخذ يذيعُ عليهَا الرسالةَ التاليةَ:

«إلى جميع الأصـدقـاءِ في العـالمِ، هـذا صُبْحي يخاطبُكُم، قريتُنَـا اليومَ تعيشُ حدثًا فـريدًا من نوعِـهِ. فنحنُ نستقبلُ بيننَا

---

(١) المتاريس: مـا يوضع في الطـريق من أجل العرقلـة، وغالبـا ما توضـع المتاريس للأعداء والخطرين على الأمن.

عـائلـة النطـاسيِّ التي استطـاعت اختراقَ الحدودِ الجهنميـةِ والهروبَ من بـلادِ الصقيعِ إلى بلادِ الشمس. وهـذه أولُ عائلـةٍ تفعلُ ذلك بنجاحٍ. ولنْ نَقُولَ كيفَ استطاعتْ الهُروبَ حتى لا نَكْشِفَ السِرَّ لشُرْطةِ الصقيعِ. إن قـرْيتَنَا سعيدةٌ بـاستقبالِ آلِ النطاسيِّ، أبنـاءِ الطبيبِ الشهيرِ الذي أعْـدَمَهُ الموجِّـهُ الأعظمُ، رغمَ أنه كان ساعِدَهُ الأيمنَ في الاستيلاءِ على الحُكْمِ.

«وأرجُـو من جميعِ الـزمـلاءِ في أنحـاءِ العـالمِ أن يُـردِّدُوا مَعِي الخَبَرَ السارَّ، ويَبْعَثُوا بِتَهَانِئِهم إليهم في قَرْيَةِ الإشْرَاقِ».

وسَجَّلَ الرسالةَ وأخذَ يُكَرِّرُهَا.

ودخلَ أبُوه عليه ليسْـألَه عن آخِرِ الأخبارِ، فسمِعَ الـرسالةَ، فقالَ له مُسْتَغرِبًا:

- منْ أينَ لكَ هذا الخَبَر؟

- اخْتَرَعْتُـهُ. لا يمكنُ أن نَقْعُـدَ سلْبِيينَ وننتظِـرَ أن يَقْبِضَ الصَّقيعيُّـون على أُولَئِكَ المسـاكينِ، أنا أعتقـدُ أنهم إذا الْتقطُـوا هذه الرسالةَ، سَتَفُتُّ في عزْمِهِم، وتُبَرِّدُ حَمَاسَهُم في البحثِ عن الهاربينَ.

- هذا إذا صدَّقُوها !

- على الأقلِّ ستبثُّ الشَّكَّ في عُقُولِهم. . . فلمْ يسبِقْ أن سمعُوا رسالةً كهذه.

ووقفَ الأبُ ينظرُ إلى الجهازِ قليلاً ثم قالَ:

- ولِمَ لا ؟ ولكنَّهم سيُخابِرُونَ جَوَاسيسَهم هُنا. فلا بدَّ من عمَلِ شيءٍ لِتَضْليلِهِمْ. لا بدَّ أن نمثِّلَ المسرحيةَ إلى نهايَتِهَا. ونزَلَ إلى أسفلَ، فرفَعَ سمَّاعةَ الهاتفِ، وأخبرَ رئيسَ المجلسِ بالفِكْرَة.

وأُعْجِبَ رئيسُ المجلسِ جدًّا بالحيلةِ الذكيةِ، ورتَّبَ استقبالا حافلاً لضُيوفٍ وهْمِيينَ، واستدْعَى الجوقَةَ الموسيقيةَ، وأشْعَلَ الأضواءَ، وأطلَقَ صفَّارَاتِ المصانِعِ، واجْتَمَعَ الناسُ على بابِ المجلسِ، فوقفَ الرئيسُ يخطبُ فيهمْ مُهَنّئاً عائلةَ النطاسيِّ بسلامةِ اجتيازِ الحُدودِ الجهنميةِ، والوصولِ إلى قريةِ(إشراقٍ) وبلادِ الشمسِ. . .

ونقلتِ الإذاعاتُ ووكالاتُ الأنباءِ الخبرَ، وأخذتْ تذيعُهُ بحماسٍ وفرَحٍ كبيرَيْنِ. . .

وأدارَ (صبحي) جهـازَهُ على مَـوْجـةِ الشُّرطـةِ الصَّقِيعيَّـةِ، فوجـدَهَا ما تـزالُ تبحثُ. كان صـوتُ الموجِّهِ الإقليميِّ يَصْرَخُ فيهِم:

- لا تَنْخَـدِعُـوا بأكَاذِيبِ الشّمْسِيينَ؛ فـلا يُمْكِنُ أن يكـونَ النطاسِيونَ قد ذَهَبُوا بَعِيدا. عُبُورُ الحدودِ مُستحيلٌ!

ورغمَ صُراخِ الموجِّهِ المحليِّ الـذي كانَ يُشْبِـهُ النّباحَ في مُكَبِّرِ الصـوتِ فقـد لَمَسَ فيهِ صُبْحي نبرةَ خيبَـةِ أملٍ ويأسٍ وخـوفٍ عَلَى مَنْصِبِه من نقمةِ الموجِّهِ الأعْظَمِ!

## 12

كانَ كاملٌ وأخُوهُ وأسْرتَاهُمَا قد غَادَرُوا الشُّقَّةَ ذلكَ الصَّباحَ في اتِّجاهِ الحُدود.

وكان اليـومُ عيدًا وطنيًّـا تُقامُ فيه المهـرجانـاتُ، ويسمحُ فيه للناسِ بالخرُوجِ من المدينةِ إلى الضَّوَاحِي القريبة بدونِ جوازاتٍ ولا تأشيراتٍ للتَّنـزُّهِ والرقصِ والغنـاءِ. وكانتِ الحكـومةُ تـوزّعُ موادَّ غـذائيةً إضـافيةً وبعضَ المشروباتِ والحلـوَى والبالُـوناتِ المزخرفةِ بوجه الموجِّهِ الأعظمِ لإطلاقِها في الهوَاء.

واستغل كـاملٌ ساعـةَ ازْدحامِ الطُـرقاتِ بـالمَارّةِ والحافلاتِ وسياراتِ الأعيانِ من رجالِ الموجِّـهِ الأعظمِ، وخرجَ بجماعَتِهِ في سيارَةِ عَمَلِه، وفوقَ سطحِهَا القماشُ والحبالُ، وفي حقيبتِها كلُّ ما تَملِكُه العائلتانِ من أشياءَ يسهلُ حمْلُها.

وأهمُّ مـا كـانتْ تحمِلُـه السيارةُ المجلَّـدُ المحـرَّمُ، وفي مكـانٍ يصْعُبُ اكتشافُه.

وانطلقتِ السيارةُ غـربًا نحـوَ الحُدُودِ المُشْرِفَـةِ على بـلادِ الشمسِ.

وكان بالسيارة جهازُ راديُو، ففتَحـهُ كاملٌ على موجة الشرطةِ ليَسْتَمِعَ إلى رسائِلِهَا ومُكالماتِها زيادةً في الاحتياطِ، وسأله يوسفُ:

- كيف استطعتَ الحُصولَ على الموجةِ وهيَ محرَّمةٌ؟

- أنا مهندسٌ، هل نَسيتَ؟

وبعد ساعةٍ من السيرِ الهادئِ في جوِّ الاحتفالاتِ الرسميةِ سمعَ رقمَ سيارَتِه في الجهازِ وأسْمَاءَ جميعِ ركَّابِ السيارة. وأنصَتَ الجميعُ في رُعْبٍ إلى الرِّسالةِ الجهنَّمِيَّةِ التي كانت تُرْسَلُ على أمْوَاجِ الشُّرطةِ في كلِّ اتجاهٍ...

ورأى من بعيدٍ سيارةَ شرطةٍ وهي تستعدُّ لقفْلِ الطريقِ أمامَهُ، فَدَاسَ على مَدَاسِ البنزينِ ومرَّ بسرعةٍ خاطفة! ووقفَ أحدُهُمْ يصفرُ له ليقفَ دونَ جدْوَى، فركِبَ السيارةَ، وانطلقَ خلفَهُ يطاردُه.

وانـزعجَ جميعُ ركَّـابِ السيارةِ، وأخـذتْ وردةُ تبكِي، فقـالَ كاملٌ:

- لا تخافِي! أنـا أعـرِفُ هـذه المنطقـةَ أكثـرَ منهمْ، ولنْ يُمْسِكُونا...

وأبْطأَ السيرَ قليـلاً، ثمَّ انحـرفَ عنِ الطريقِ، ودخـلَ غابـةً كثيفـةً، وسـارَ في طـريقٍ قـرَويٍّ ضيقٍ، ويـوسفُ يحاولُ تتبُّعَ الطريقِ الذي لا يُوجَدُ على الخريطةِ.

وتوغَّلُوا في المسالِكِ الوعرةِ المتْربَـةِ التي كانتْ ما تزالُ بها بقيَّةُ وَحلٍ من ثلـوجِ الربيـعِ، ولكنَّ السيارةَ كـانتْ قـويَّةً، ومـزوَّدةً بعجلاتٍ خاصةٍ بالطُّرُقِ العسيرةِ، وبقوَّةِ الجذْبِ الأماميِّ.

وبعـدَ سـاعـاتٍ رهيبـةٍ من الضربِ في المتـاهـاتِ الخاليـةِ والمسالِكِ المُقْفِرَةِ المُعْتِمَةِ رغْمَ النهار، توقَّفَ كاملٌ بساحةٍ خاليةٍ من الأشجارِ، وطلبَ من الجميعِ النزولَ.

وذهبَ كـاملٌ ويـوسفُ في اتجاهينِ مختلفينِ لاسْتِكْشـافِ المكانِ لعلَّهُما يَعْثُرَانِ على أثرٍ للحياةِ والناسِ فلمْ يَجِدَا شيئا.

كـان المُوجِّـهُ الأعظمُ قـد أمَـرَ بإخْـلاَءِ مِنطقـةِ الحُدودِ من النـاسِ حتى لا يتسرَّبُـوا إلى الخارجِ، أو تتسرَّبَ إليهم أشيـاءُ غيرُ مـرْغُـوبٍ فيهَـا من الخارجِ، مثـل الكُتُبِ والصُّحُفِ والأسْلِحَةِ وأجهزَةِ الراديو.

وكـانَ كلُّ واحدٍ من آل النطـاسيِّ يعرفُ دورَهُ؛ فقـدْ تدرَّبُـوا عليهِ في الغرفـةِ الصغيرةِ عشراتِ المرَّاتِ حتى أصبحُوا قادرينَ على أدائِهِ بِعُيونٍ مُغْمَضَة.

وبِسرعةِ البرقِ أنْـزَلُوا كـومةَ القُمَاشِ ونشرُوهـا على الأرضِ، وأدْخلُوهَا في شبكةِ الحبالِ المربـوطةِ إلى سلَّةٍ من الحبالِ الغليظةِ ذاتِ قَعْرٍ خشبيٍّ متين.

وأشْعَلَ كـاملٌ النـارَ في مِشعَلِ تلحيـمٍ يـدَويٍّ، وفتحَ فمَ القُمَاشِ الذي كانَ عبـارةً عن كيسٍ ضخمٍ، ووجَّهَ لسَانَ اللهبِ إلى داخلِـهِ، فبدأ يَنْتَفِخُ أمـامَ دهْشَـةِ الصغارِ والكبـارِ وكأنهمْ لم يتوقَّعُوهُ أن يَفْعَلَ.

وبعدَ بِضْعِ دقائقَ امتلأَ الكيسُ القُماشي الضخمُ، وتحوَّلَ إلى بالونٍ عظيمٍ وأخذَ يتمَلْمَلُ ليُغَادِرَ الأرْضَ نحوَ الفضَاءِ.

وكـانت السَّلَّـةُ المرْبُـوطـةُ إليهِ مُثبّتـةً إلى الأرضِ بـالأوْتَـادِ، ومُثْقَلَةً بأكْياسِ الرملِ والحجارة.

وكانتِ المرْأتـانِ قد نَقَلَتَـا كُلَّ ما كـان بالسيـارة من أمتعةٍ إلى السلَّةِ المربعةِ، ودخلتَا إليها صُحْبَةَ الطفلين في انتظارِ زوجيهما.

ووقفَ كاملٌ ينظرُ حَوَاليْهِ في قلقٍ، فسألَه يوسفُ:

- ماذا؟

- لا شيءَ. فَقَطْ لا يستطيعُ الواحدُ في هـذهِ الغَابَةِ أن يعرِفَ اتِّجاهَ الريحِ.

- ألمْ تَقُلْ إنكَ سمِعْـتَ النَّشرةَ الجوِّيَـةَ، وأنَّ الهواءَ سيكـون ملائمًا؟

فحرَّكَ رأسَه موافقًا:

- ولكنَّ الرياحَ تُغيِّرُ اتِّجاهَهَا دونَ سابقِ إنْذارٍ.

فنظرَ يوسفُ إلى سماء الليلِ الحَالِكِ بقلَقٍ وقالَ:

- علينا أن نعْتَمِدَ على الله.

وفي تِلكَ اللحظـةِ سَمِعَ كـاملٌ صَـوْتَ مُحرِّكِ سيَّارةٍ قـادمـةٍ نَحْوَهُمْ، فأسْرَعَ إلى سيارَتِهِ واندسَّ تحتها ليُخْرِجَ المجلَّدَ.

وفي تلكَ اللحظـةِ كانَ المنْطَـادُ المتَفِخُ جـدًّا يَتَمَلْمَلُ ويترنَّحُ لينْطَلِقَ، واستطاعَ أنْ يسْتَلَّ بعضَ الأوتَادِ من الأرضِ.

واقْتَرَبَتْ سيَّـارةُ حَـرَسِ الحُدُودِ حتى ظَهَـرَ نُورهـا على بُعْـدِ كيلومترٍ أو أقلَّ...

وتـرامَى إليهمْ نبـاحُ سِرْبٍ هـائلٍ من الكـلابِ البـوليسيـةِ الفاتِكَةِ وهيَ تقْتَرِبُ نحوَهُم بسرعةٍ مُرْعِبَةٍ.

وخرجَ كـاملٌ من تحتِ السيارةِ بـالمجلَّدِ تحتَ إبطِـهِ ليَجِدَ أنَّ المنْطَـادَ قـد اقْتَلَعَ آخـرَ وَتَـدٍ وارْتَفَعَ عن الأرضِ... وسَمِعَ صَرْخَةَ زوجتِهِ وأخيهِ وهمْ يَمُدُّونَ أيديَهم نحوَه في يأسٍ...

وبحركـةٍ يائسـةٍ ارتمى كاملٌ على آخِـرِ حَبْلٍ يَتَدلَّى مـن سلَّةِ المنْطَـادِ، وتعلَّقَ بـه بِيَمينِـه، وركـزَ المجلَّدَ في حِـزامِـه، وأخـذَ يتسلَّقُ نحْوَهُمْ بمشقَّةٍ شديدةٍ لثقلِ مَلاَبسِه...

وَوَصَلَتِ الكـلابُ المتـوحِّشةُ إلى الفجْـوةِ، وبـدأتْ تثِبُ في الهوَاءِ وتنقضُّ لتُمْسِكَ بقَدَمَيْ كاملٍ المعلَّقِ بحبْلِ المنْطَادِ، وَتَهِرُّ هريـراً مُخِيفًا، وتُكَشِّرُ عن أنيـابٍ كنصَالِ الخنـاجِرِ وقـد ملأتِ الساحةَ الخاليةَ من الأشجارِ...

وأمْسَكَ يوسفُ وسَنَاءُ بالحبلِ وأخذَا يسحبَانِهِ حتَّى استطاعَا الإمْسَــاكَ بيـدٍ كــاملٍ. وتعـاوَنَ الجميعُ على رفْعِــهِ إلى دَاخِلِ السلـةِ، فجلَسَ يَلْهَثُ مبهُـورَ الأنفــاسِ، وقـد كـادتْ رِئَتَـاهُ تتمزّقَان!

ووصلتْ سيـارةُ حَرَسِ الحُدود، فخـرجَ منهـا أربعَةُ رجـالٍ مُسلَّحِينَ بالـرشَّاشَــاتِ وقفوا ينظـرون إلى المرْكَبَةِ الهوائيـة، وهي تَخْتَرِقُ الفجْوَةَ الضيقةَ بين أدْوَاحِ الأَرْزِ[1] الباردةِ الباسِقَة.

ورفَع قـائدُهم ضـوءًا كاشفًـا بجـانب السيَّارةِ، فـأضَاءَ بـه المنْطَـادَ، وظهـرتْ صـورةُ الموجِّـهِ الأعظمِ كبيرةً على جـوانِبِـهِ. وأعطى القائدُ أوامِـرَهُ لجنُودِهِ فصوَّبُوا أسلحَتهم نحـوَ البالونِ، ولكنَّهم تـردَّدُوا في إطْــلاَقِ النـارِ على وجــهِ الموجِّـهِ الأعظمِ، فاخْتَطَفَ هـو الرشاشَ من يَـدِ أحدِهم وأخذَ يُطْلِقُ النـارَ حوْلَ المنْطَادِ ويصيحُ:

– ألْقُوا إلَيْنَا بالمجلَّد أو نَثْقُبُ البَالُونَ فتحْتَرِقُونَ جميعا...

---

(١) أدْواح الأرْز: أشجار الأرز العظيمة المتشعبة، ذات الفروع الممتدة.

وحينَ سمِعَتْ وردةُ ذلكَ أُصيبتْ بَهلعٍ شديدٍ، وكانتْ تَضُمُّ المجلدَ إلى صدْرِها فألقتْ به إليهم صائِحَةً:

- خذوه. . . خذُوه. ولا تطلقوا النار!

وكادَ قلْبُ يـوسفَ يتوقَّفُ، وهو يَـرَاهَا تَرْمِي إليهم بـالمجلَّدِ النفيسِ دونَ جَدْوَى. . . فقـد تلقّاهُ رئيسُهم قبلَ وقوعِـهِ، وأمرَ بثقبِ بالونِ المنْطَادِ، وقـد زالَ خوفُهُ على المجلَّدِ من الاحتراق أو الضياع.

وكانَ كـاملٌ قد اسْتَرْجَعَ أنفاسه، فـوقفَ وتعلقَ بحبلٍ يتَدلَّى من أعلى البالـون، فمَالَ المنطادُ بسرعةٍ عن الفجوةِ المكْشُـوفَةِ، واختفَى عن أنظَـارِ المطاردينَ خلفَ رؤوسِ الأدْوَاحِ والأدْغَـالِ الكثيفةِ، ولاحقتْهُمْ فرقعةُ رَصَاصِ الرَّشاشاتِ في الظلام. . .

ونظَـرَ ناحيَـةَ الحدود، فـرأى عن بُعْدٍ أضـواءَ قـريةٍ يقْطنُهـا بعضُ عُمَّالِ المحَـاجِـر والطُّـرُقِ، وقد تجمَّعُـوا وسطَ سـاحتِهَـا يُطلقـونَ البـالـونـاتِ الكبيرةَ والصغيرةَ في اتجاهِ بـلادِ الشمسِ، وعليهَـا صُـورُ الموجِّـهِ الأعظمِ، وقد أحَـاطَ بهم رجـالُ الـدركِ والشرطةُ وحرسُ الحُدودِ ليتأكَّدوا مِنْ أنَّ أحَدًا لمْ يتعلَّقْ بها ليقْفزَ على الحُدودِ إلى بلادِ الشمسِ المُجَاوِرةِ. . .

كانوا يقصدُونَ إيهَامَ أهلِ بـلاَدِ الشمسِ أنهم يعِيشُونَ في بِلاَدِ الصقيعِ حياةً سعيدةً هانئةً، وأنهُمْ يُحِبُّونَ زعيمَهم ونظَامَهُم.

وأمْسَكَ كامِلٌ بالحِبَـالِ، فوجَّهَ المنطادَ نحوَ القَـرْيةِ، واندسَّ به بينَ البالونـاتِ الطائِرةِ، فاخْتَلَطَ بها واخْتَفَى عن أنظارِ جميعِ المُطَاردين . . .

وكـانتْ الريحُ شَرقيـةً رُخَاءً فَسَـارَتْ بهِمْ نحو الغَـرْبِ ببُطْءٍ شَـدِيـدٍ، وكـاملٌ يَـدْعُـو الله في سِرِّهِ، ويَشُـدُّ الحبـالَ في اتجاهِ الأسْوَارِ العَاليَة.

وبعـدَ لحظَاتٍ عسيرةٍ من الحسْرَةِ والخوفِ الشـدِيـدِ لاَحَتْ لهم متـاريسُ وأسْـوَارُ الحُدودِ، وخلْفَهَـا قُـرَى بـلادِ الشمسِ بأضْوائِهَا البَاهِرةِ المُتَلأْلِئَة، وفي مقدِّمَتِهَا قرْيَةُ (إشْراقٍ).

وانطَلَقَ الرَّصَـاصُ من أبْرَاجِ الحِرَاسَةِ بطريقةٍ عشْـوائيةٍ يثْقُبُ البالوناتِ ويسقطُهَا . . .

وخَفَّضَ كامِلٌ نـارَ الشعْلةِ إلى حَدِّهَا الأدنَى، فأخـذ المنطادُ في الهبُوطِ، وكاملٌ يسحَبُ الحِبـالَ ويَمِيلُ بجسدِهِ خَارِجَ السلَّةِ في اتجاهِ الجانبِ الآخرِ من الحُدود . . .

ومن غـابةٍ قـريبةٍ من قـريةِ (إشْراقٍ) انطلقَ نـورٌ وهَّاجٌ أنَـارَ المنْطَادَ، فخَافَ كاملٌ أن يَكْشِفهم للقنَّـاصَةِ من جانبِ الحُدودِ الصقيعيةِ، وأطلَّ يصيحُ فيهم:

- أطفئوا النُّورَ. . أرْجُوكُمْ.

وفي اللحْظَةِ نفسها توجَّه الضـوءُ الكشَّافُ نحوَ بُرْجِ الحِرَاسةِ الصقيعي، فأغْـرَقَ الحَرَسَ بأشعَّتِـهِ السـاطِعَـةِ التي أعْشَتْ عُيُونَهم، وشَغَلَتْهم عن إطلاقِ النارِ على المنْطَاد. . .

وسمعَ ركّـابُ المنطَادِ صـوتَ بوقٍ من سـاحةٍ بقـريةِ إشراق يخاطبهم:

- مـرحبًـا بكمْ يـا آل النَّطـاسي في أرضِ الشمسِ. . ! جميعُ أهْلِ قـريَةِ (إشراق) يهنئـونكمْ ويُرحِّبُـونَ بكُم. . ! لقد اجْتَـزْتُمْ الحُدودَ الآنَ ولاَ خـوفَ عليكـم. تعـالـوا. انـزلـوا هُنَـا وسطَ السَّاحةِ.

ومالَ كاملٌ بـالمنطاد، وأخذَ ينزلُ بـهِ رويدًا رويدًا بين حَمَاسِ أهلِ القـريةِ وتصفيقـاتهم وأغَـانِيهِمْ ومَضَـاتِ آلات التصويـرِ وكاميرَاتِ الفيديو والتلفزيون.

وحينَ اقْتَرَبَتْ حِبَالُـهُ من الأرضِ تعلَّـقَ بها رجـالُ القـريـةِ وأخذُوا يجْذِبُونَ المنْطَادَ إلى أسفلَ حتى اسْتقرَّ على الأرضِ .

وفَسَحَ رِجَالُ النظامِ الطريقَ لرئيسِ المجلسِ ليتقدمَ للترحيبِ بالهَابِطِينَ من السماء .

وبعـدَ مراسيمِ الاستقبـالِ والترحيبِ جاءتْ سيَّـارةٌ فحملتْ الجميعَ إلى فُنْـدقِ القـريـةِ ، حيثُ نـامُـوا الليلـةَ تحتَ حـراسـةٍ مشدَّدةٍ خشْيَةَ تسَرُّبِ عُمَلاَءِ الموجِّـهِ الأعظمِ وجَوَاسِيسِهِ وقتلتِهِ المُنْتَشِرينَ في جميعِ البلادِ.

## 13

وفي الصباحِ جلسَ الجميعُ يُفْطِرونَ في قَاعَةِ المطعمِ الأنيقـةِ المُلْحقَةِ بالجناحَيْنِ المخصَّصينِ لكبارِ الضُّيوفِ.

وأعْرَبَ يوسفُ لأخيه عن أسفِهِ العميقِ لما فعلتهُ زوجتُه وردةُ بالمجلَّدِ الثمينِ، وهوَّنَ عليه أخوُه بقولهِ:

- المهمُّ هو أننا نجوْنَا بأرْوَاحِنا.

وأضـافتْ سنَـاءُ لتُسَرِّيَ عن وردةَ التي كـانت تُعَـانِي شعـورًا مؤلمًا بالذَّنْبِ لتصرُّفِهَا العشْوَائي الطائشِ:

- أيُّ شخصٍ في مكـانِهَا كـانَ يَفْعَلُ الشيءَ نفسَـه. لم يكُنْ لأحَـدٍ منَّـا وقتٌ للتَّفكِيرِ الـواضح. المهمُّ هـوَ أننَـا نَجَـوْنَـا من جحيمِ بـلادِ الصقيعِ، وأنكما سَتُتَـاحُ لكما فُـرْصَـة تطبيق نظريَّتَيْكُما ومشَاريعِكُما وإخراجِها إلى الوجودِ.

وجـاء رئيسُ المجلسِ لِتَحيَّـةِ ضُيُـوفِـهِ واصْطِحـابِهما إلى دارِ البلـديـةِ، لحضـور اجتماعٍ معَ بقيـةِ الأعضـاءِ لترتيبِ إقـامتهم

وتشغيلِهم. وأخــذَ الاثنـانِ أوراقَهُما لعَــرْضِ مشـاريعِهِمَا على المجلسِ.

وجـاءَتْ زوجةُ الـرئيسِ وعـدَدٌ من سيـداتِ المدينـةِ لزيـارةِ السيــدتينِ الضيفتينِ سَنَـاءَ وورِدَة. وجِئْنَ بهَدَايَــا من الملابِسِ الفاخِرةِ والأزهار والفوَاكِهِ والمجلاّتِ المُصوَّرَة.

وجلسَ إهـابٌ ورنْدَةُ يلعبان معًـا في الغُرْفَـةِ التي خُصِّصَتْ لهُمَا.

وأقامَـتِ البلدِيَّةُ على شَرَفِهـم حفْلَةَ غَداء ضخمـةً، وأخبرهمُ رئيسُ المجلِسِ أن رئيـسَ بـلادِ الشمسِ سيَسْتَقبلُهُـم في اليــوم الموالِي، وأن طائرةً خـاصَّةً ستأْتِي لتأخذَهُمْ إلى العاصمَـةِ صبَاحَ الغَدِ.

وفي المساءِ جَلَسُوا يَتفرَّجونَ على التلفزيونِ.

وبـدأتْ نشرةُ الأخبارِ، فكـانَ وُصُولُهم إلى بـلادِ الشمسِ من بينِ الأخبـارِ المهمَّـةِ الأولَى. وظهـرُوا جميعًــا في المنطَـادِ يُطِلُّـونَ مرْهَقينَ، ولكنْ سُعَدَاءَ باسِمِين...

وانْصرفَ الصَّغيرانِ للَّعِبِ بما اصْطحَبَاهُ من لُعَبِهِمَا القليلةِ، وأخرجَ إهابٌ من محفظتِه رِزْمَةَ أوراقٍ كبيرةً، وذهبَ بها إلى أبيهِ قائلاً:

- هلْ تستطيعُ أن تُلْصِقَ لي هذه في مجلَّدٍ؟

وتناولَ الأبُ رِزْمَةَ الأوراقِ من وَلَدِه، وصرفَهُ قائلاً:

- حين تنتهِي الأخبارُ.

وانتهتْ نشرةُ الأخبارِ، ودخلَ كاملٌ وزوجتُه غرفتَهما، ووجدَ يوسفُ نفسَهُ مُمْسِكًا برزمةِ وَرَقٍ في حجرِهِ، ونَظَرَ إليها، فانْقَلَبَ قَلْبُه، وأخذ ينبِضُ بسُرعةٍ...

وتصفَّح الأوراقَ فإذا هيَ نُسَخٌ طبقَ الأصْلِ لرُسُومِ المجلَّدِ الذي فقدوه! ولمْ يتمالَكْ أن قَامَ وطرَقَ بابَ أخيهِ، وحينَ خرجَ إليه رفَعَ الرِزْمَةَ أمامَ عينَيْه:

- أتَذْكُرُ هذه الأوْرَاق؟

ونظرَ إليها كاملٌ غيْرَ فَاهِمٍ، فأضافَ يُوسفُ:

- إنَّها الرُّسُومُ التي نقَلَهَا إهابٌ من المجلّد المحرَّم.

وأمْسَكَ بِهَا كَـامِلٌ وأخـذَ يتصفَّحُهـا، وابتسـامـةٌ عـريضـةٌ ترْتَسِمُ على وجْهِهِ، وقال:

- قد يكونُ لهذهِ الرسومِ أثرٌ أهمُّ من المجلَّدِ...

ونـادَى زوجتَه سنـاءَ فَخَـرَجتْ هيَ الأخرَى، وجـاءتْ وردةُ فكانتْ أسْعَد الأربعةِ بالمفاجأة...

وذهبَ الجميعُ ليُهنئوا إهابًا، فوجـدُوه نائمًا بملابِسِهِ فانحنوا عليه واحدًا وواحـدةً وقبَّلُوهُ. وتناولتْهُ أمُّـه بينَ ذرَاعَيْهَا وأخذتْ تضُمُّه، وهي تخْلَعُ ملابِسَهُ لتُلْبِسَهُ منامَتَه[1].

ولم يَسْتطِعْ يوسُفُ النـومَ فجلسَ في صالـونِ الجناحِ الفـاخرِ يتصفَّحُ الرسومَ ويُدَقِّقُ فيها النَّظَرَ بعينٍ فاحِصَةٍ.

وجـذبَتْ انتباهَـهُ رموزٌ وأرقـامٌ غَـامِضَةٌ تحتَ تـوقيعِ الرَّسَّـام حَسِبَهَـا أولاً تواريخَ رسْمِ اللـوْحَاتِ، وأخْـرجَ بلَّوْرَتَـهُ المكبِّرَةَ، وأخـذ يفْحصُهَا عنْ قـربٍ فإذا هي أجزاءُ من مُعَـادَلَةٍ كيماويَـةٍ

---

(١) منامته: ملابس النوم.

معقَّـدَةٍ تَنْتَشِرُ عَلَى جميعِ صفحَـاتِ المجلَّـد، وكـان إهـابٌ قـدْ نَقَلَهَا بكلِّ أمانةٍ ودقَّةٍ على أنَّهَا طرفٌ من الرَّسْمِ.

وقـامَ فجَلَسَ إلى مَكْتَبِه، وأخـرجَ رزمَةَ أوْرَاقٍ، وأخـذ يَنْقُلُ الأرقَامَ والرُّموزَ مُتتبّعًا نِظامَ ترْقيمِ الصفحاتِ.

## 14

وحينَ انتهَى من نقلِ المعـادَلةِ الطـويلةِ تبيَّنَ لـه أنه أمـامَ سِرٍّ خطيرٍ جدًّا، بلْ وأخْطَرَ من كل ما كانوا يتصورون.

وأعادَ قِـراءةَ المعَادَلَةِ مِرارًا وبكلِّ تَـدْقِيقٍ وتمهُّلٍ حتَّى لم يَبْقَ لَهُ شكٌّ في حقيقَةِ ما اكْتَشَفَ.

وراحَ فتمدَّدَ في فراشِهِ، وأغْمَـضَ عينيهِ مُفَكِّرًا فيما يجبُ عليه أن يفْعَلَ.

ومـا إنْ لاحتْ خُيُـوطُ الفجْرِ الأولَى حتَّى نـزَلَ من سريـرِه، وذهبَ إلى غُـرفةِ أخيـهِ يطرُقُ عليـه البابَ. وحينَ خـرجَ يفركُ عينيهِ دعَاهُ يوسفُ للجلوسِ:

- تعالَ يا كاملُ. أريدُ الحديثَ إليكَ في موضوعٍ مهمٍّ.

- ألا تستطيعُ الانتظارَ حتَّى الصَّباحِ؟

- كلاَ! اجْلِس.

وجلسَ كـاملٌ وقـد استيقَظَ تمامًـا؛ فلمْ يكُنْ أخُـوهُ ممَّنْ تشْغَلُهُمْ المشكلاتُ الصغيرةُ. قالَ يوسفُ:

- اسْمَعْ. إنَّ ما كانَ يحملُهُ المجلَّدُ المحرَّمُ أخطرُ كثيرًا من مجرَّدِ رُسُومِ فنَّانٍ متمرِّدٍ.

- ماذا تعنِي؟

- انظُرْ..

وأشارَ إلى الأرقَامِ والرُّموزِ تحتَ توقيعَاتِ الرَّسَّامِ، وأضافَ:

- لنْ تستطيعَ أنت قِرَاءتَهَا ولا فكَّ شَفْرَتِهَا، فهي مُعَادَلَاتٌ بيُوكيماوِيةٌ حديثةُ الاكتِشَافِ. وقد يكُونُ الموجِّهُ الأعظمُ أمَرَ العُلَمَاءَ الصَّقِيعِيينَ باخْتِرَاعِ سِلاحٍ جديدٍ فتَّاكٍ، فاخْتَرَعُوا له هذه المُعَادَلَة.

- هل تعْنِي أنها مُعادلةٌ لصُنعِ قُنْبلةٍ كالهيْدرُوجِينيةِ أو النِّترُونيَّةِ؟

- ليسَ تمامًا. وليسَ لَهَا المفعُولُ نفسُه؛ فهيَ لا تَهْدِمُ ولا تَقْتُل. ولكنَّها تُحوِّلُ طَبْعَ الإنْسَانِ!

- كيفَ؟!

- هذهِ مُعَـادَلَةٌ لِصُنْعِ مـادَّةٍ لتحويلِ هُرْمُـونَاتِ الـذُّكُورَةِ إلى هُرْمُونَاتِ أنُوثَةٍ دونَ تغْيير المظْهَرِ الخارجِيِّ للرجالِ.

- تعْنِي أنَّـهُ بالتَّعـرُّضِ لهذه الهُرْمُـوناتِ يتحـوَّلُ الرجـالُ إلى إنـاثٍ مسَـالماتٍ نـاعماتِ الطبْعِ، يَـرْفُضْنَ العُنْفَ، ويكْـرَهْنَ الحُرُوبَ...

- تمامًا!

- ولكنْ كيفَ يمكِنُ اسْتعْمَالُهُ؟

- بطريقَـةٍ يسيرة، تُلْقَى كميَّةٌ كافيـةٌ منهُ داخلَ مُسْتَـوْدَعَاتِ مياهِ المُدُنِ الرئيسَـةِ بطريقةٍ مُنتَظِمَةٍ، فهـوَ لاَ طَعْمَ لَهُ ولاَ لوْنَ ولا رائِحَـةَ، وبعـد سنتينِ أو ثلاثٍ يكـونُ كلُّ الـذينَ شَرِبُـوا ميَـاهِ المستـوْدَعِ أو اغْتَسَلُوا بِهَا قـد تحوَّلُـوا إلى نسـاءٍ وَدِيعَاتٍ نـاعماتٍ كـالحريرِ، وعنـدئذٍ تهجمُ جُيُـوشُ المُوجِّهِ الأعظمِ، وتَحْتَلُّ بـلادَ الشمسِ دونَ عَنَاءٍ على الإطلاق.

وفتحَ كاملٌ فَمَهُ مُنْدَهِشًا وقالَ:

- يَـا لَـهُ من سلاحٍ شَيْطَـانِيٍّ رهيبٍ! لا بـدَّ أن نُخْبِرَ هـؤلاَءِ الناسَ في أسرعِ وقتٍ.

- غدًا سنرى الرئيسَ، ونسلِّمُهُ معَادَلَةَ السلاحِ السِّرِّي يدًا بيدٍ...

وخرجَ يُوسفُ فأخبرَ حَارِسَهُ بأنَّه يُرِيدُ أن يَرَى رئيسَ المجْلسِ حَالمَا يسْتيْقظُ، وعادَ ليَسْتَعِدَّ لاستقبالهِ.

وجاءَ الرئيسُ مُسْرِعًا، فوجدهم على مائدَةِ الفطُورِ، فَاخْتَلَى به يوسفُ وكاملٌ في غُرْفَةٍ صغيرةٍ، وأطلعهُ يوسفُ على السلاحِ الصقيعيِّ السِّرِّيِّ الجديدِ.

وظهَرَ الاهتِمام الشديدُ على وجهِ رئيسِ المجْلِسِ القَصيرِ الممتلئِ، وفكَّرَ مليًّا، ثمَّ قالَ:

- هَلْ يَعرفُ الصَّقِيعيُّونَ أنَّكُمَا تعْرِفَانِ هذَا السِّرَّ الخَطِيرَ؟

فنظرَ كاملٌ إلى أخيهِ، وقالَ:

- لا أظنُّ؛ فقد اكتشفَ يُوسُفُ المعَادَلَة بالمصادفةِ وهو يتصفَّحُ نُسَخَ الرُّسُومِ التي نقلَهَا طِفْلُهُ من المجلّدِ الممنُوع. وقد بقيَ المجلّدُ مَعَهُم، رَمَتْهُ لهمْ وردَةُ من المنْطَادِ.

فحرّكَ الرئيسُ رأسَهُ وقالَ:

- أنا أعْرِفُ طـريقةَ تفكِيرِهِمْ جيدًا، فإنَّهمْ لنْ يَرتَـاحُوا حتى يتخلَّصُوا منكمْ . . .

فقالَ كاملٌ مستغربًا :

- ولكنَّ مجلَّدهُم بَقِيَ عندَهمْ .

فقالَ الرئيسُ :

- ذلكَ لا يهمُّ . إنهم يريدُونَ إعطَاءَ دَرْسٍ للذين يفكِّرُونَ في الهرُوبِ حتَّى لا يُحَاوِلُـوا . ولكننـا لَنْ نترُكَ لَهُمْ تلكَ الفُـرْصَـة ! ستريَانِ . . .

وحينَ خـرجتِ العائلتـانِ إلى المَطَـارِ الصغيرِ خَـارجَ القريـةِ الشمسية كانَ أعضاؤهما متفرّقينَ في عدَّةِ سيَّارات . . .

وكانَ كـاملٌ ويوسفُ متنكِّرينِ في ملابِسَ محلِّيـةٍ ، ونظَّاراتٍ ولـحًى وشواربَ غيَّرت مظهرَهُمَا تمامًا . . .

وتفرّقوا بينَ ثلاثِ طائِراتٍ مدنيَّـةٍ وعسكريَّةٍ مسلَّحة . وأثناءَ وَدَاعِ رئيسِ المجلِسِ دَسَّ يوسفُ في جيبِهِ غـلافًا مُقْفَلاً وهَـمَسَ في أُذُنِه :

- في جيبكَ نُسْخَةٌ من المعـادلَةِ السِّرِّيةِ، سلِّمْهَـا إلى الرئيسِ بنفسِكَ في حالةِ ما إذا تعرَّضْنَا لحادِثٍ.

وضغطَ الرئيسُ على يديهِ مُطَمْئِنًا...

وطَـارَتْ الطـائِرَاتُ الثـلاثُ في اتجاهِ العاصِمَـةِ واحـدةً بعـدَ الأخرَى...

## 15

وفي مطَـارِ القصْرِ الـرّئاسيِّ كـانَ ينتظـرهُمْ عـددٌ من رجَـالِ الـرئيسِ، فأخذُوهُم في سيّـاراتٍ مُصفَّحَـةٍ رأسًا إلى حيثُ كـانَ الرئيسُ ينتظرهُم.

وحيّـاهُمْ الـرئيسُ بِحـرارةٍ، ورحَّبَ بهِمْ، وقبَّلَ الأطفـالَ وداعبهُمْ، ثم انفردَ بيُوسفَ وكاملٍ في غرفةِ مكتبِه.

وهناكَ سلَّمـهُ يُوسـفُ رِزْمَةَ الرُّسُـومِ مُشيرًا إلى توقِيـعِ الفنَّان بُرهـانَ بُوريشَ، والـرُّموزِ السِّرِّيـة التي تحمل مُعادلَـةَ السلاحِ الجديدِ.

وهنَّأهُ الرئيسُ بِحرارةٍ، ورَبتَ على كتفيْهِ قائلاً:

- لقـدْ قدَّمْتَ للبشريـةِ خِدْمَـةً عظيمةً بإطْلاعِنَا على هـذا السلاحِ السِّريِّ الخَطِيرِ؛ فحينما يَعـرفُ الصَّقيعيُونَ أننـا نملكُه، لنْ يجرؤوا على استعمالِـهِ ضدَّنا. ويبقَـى توازُنُ القُـوَى كما كان. ويعيشُ العالم في سلامٍ مدَّةً أطْوَلَ.

ونَادى الـرئيسُ وزيرَه في البحْثِ العلْمِي وقدَّمَ لـهُ الأخويْنِ، وقال ليوسفَ:

- رأيتُ أن أعيِّنَكَ على رأسِ فـريـقٍ من العُلَمَاءِ للبحثِ عن مُعادَلَةٍ مُضادةٍ للمعـادلةِ الصَّقيعيةِ حتى نصرفَهُم عن استعمالِها ضِدَّ أيةِ دولـةٍ أخْرَى. وسَيَضَعُ وزيرُنَا في الطَّـاقةِ تحتَ تصرُّفِك كلَّ ما تحتـاجُونَ إليه من وسَـائلَ مادية وبشريـةٍ. فهلْ يناسبُكَ ذلك؟

فَشَكَـرَ يوسفُ الـرئيسَ بأدبٍ جَمٍّ وهوَ لا يكَـادُ يُخْفِي فرحَـهُ وحماسَهُ. وقالَ:

- ذلكَ ما كنتُ أتمنَّاهُ طوالَ حَياتي يا سيدِي الرئيسُ!

والْتَفَتَ إلى كامِلٍ وقال:

- وأنتَ يـا كـاملُ، لا أدْرِي مـا جعلكَ تتْرُكُ مِهْنَةَ العـائلـةِ النَّطـاسيّةِ المَوْرُوثـةَ منذُ القِـدَمِ، وتمتهنُ الهندسـة. ولكنَّ العقْلَ العبْقَرِي يتميَّـزُ خيثُما توجَّـهَ. وقد طلبتُ من وزيـرِنا أن يضعَكَ على رأسِ فـريقٍ لدراسـةِ مشروعِ محطَّاتِكِ الفضـائيةِ الجديـدةِ القليلةِ التكاليفِ، والعملِ على إنجازِه.

وصـافحَ كـاملٌ الـرئيسَ وهـوَ يبتسمُ ابتسامتَـهُ العـريضَـةَ، ويكشفُ عن أسنانهِ الكبيرةِ البيضَاءِ.

وأشارَ الـرئيسُ، ففتَحَ مُديـرُ المراسيمِ البابَ، ودخلتْ وردةُ وسناءُ والطفـلانِ، وقدمت الزوجتانِ التحيـةَ للرئيسِ، وانحنى هُوَ، فقبّلَ رنْدةَ وأمسكَ بكتفيْ إهابٍ وقالَ:

- أمَّـا أنتَ أيُّها الفتَى، فـلا نـدرِي كيفَ نجـازيكَ على الخدمـةِ العظيمةِ التـي أسْدَيتَهـا للبشريَّـةِ بذكـائِكَ ومـوهبتِكَ الفنيّةِ وقـوّةِ ملاحظتِكَ وحرصِكَ على الكمالِ! ولكنـنَـا سنفكِّرُ في طـريقــةٍ نـردُّ بها إليـك هـذا الجميلَ. وحتَّى نفْعَـلَ، فقـدْ خصَّصنَـا لكَ مـرسماً جميلاً بجـانبِ غـرفتك في دارِ والـديك، لترْسُمَ مـا تشـاءُ في أوقـاتِ فـراغِكَ، وبعـدَ انتهـائِكَ من دروسِك. هل يُعجبُكَ ذلك؟

- جدًّا جدًّا، يا سيدِي...

ودخلَ مصـوِّرُو الصحـافةِ والتلفـزيـون، وامتـلأتِ الغُرفَـةُ الرئاسيةُ الواسعةُ بالأضواء والابتسامَاتِ والتحيَّاتِ.

وهكذَا بدأتْ عائلةُ النطاسيِّ حياةً جديدةً في بلادِ الشمسِ، بعيدةً عن وجـهِ الموجِّه المُخيفِ ورجاله ومفتِّشيـه وجواسِيسِه، ومنْ ضيْقِ الغـرفـةِ الـواحـدةِ وَضنكِ العيشِ وتسلُّطِ الـرؤسَـاءِ الأنـذالِ وقتْلِ المَواهبِ وروحِ المُبَادَرَةِ، إلى عَـالَمٍ أفْضَلَ وأجْمَلَ، يسْتَطِيعُ فيه الفَرْدُ مُمَارَسَةَ حُـرِّيتِهِ، واستثْمَارَ مواهِبِهِ وذكائِهِ في كلِّ ما يعُودُ عليهِ وعلى البشريَّةِ جمعاءَ بالخيرِ والسَّعَادَة. . .



# هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبدالسلام البقالي، الحاصل علي جائزة «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب للقارئ أحداث الماضي البعيد، ويلقي الأضوا[illegible] المستقبل، بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحا[illegible] فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية الحديثة للشباب في العالم العربي.



مكتبة